

لست بريءاً

كلنا أبطال قصصنا الخاصة



تأليف

محمد أبو الفتوح

مقدمة الكاتب

لستُ هنا لأخبرك من هو الشرير. ولستُ هنا لأقنعك أن البشر سيئون أكثر مما نعتقد.

في الحقيقة، أعتقد أن المشكلة أعقد من ذلك بكثير.

فمعظم الناس الذين تسببوا في ألم الآخرين لم يستيقظوا يومًا وهم يخططون ليكونوا أشرارًا. ومعظم من كذبوا، أو ظلموا، أو خانوا، أو قسوا، لم يروا أنفسهم بهذه الصورة أصلًا.

كان لكل واحد منهم قصة.

قصة جعلته يبدو منطقيًا في عيني نفسه. وقصة جعلت أفعاله تبدو مفهومة، وربما ضرورية. وهنا بدأ فضولي.

ليس تجاه الشر نفسه. بل تجاه الطريقة التي يراه بها الإنسان.

كيف يستطيع شخص أن يؤدي إنسانًا آخر، ثم يظل مقتنعًا بأنه شخص جيد؟

كيف يستطيع أن يبرر لنفسه ما كان سيدينه لو فعله غيره؟ وكيف تتحول الأخطاء الصغيرة، مع الوقت، إلى قناعات راسخة لا يعود صاحبها يراها أخطاء أصلًا؟

كلما تأملت البشر أكثر، اكتشفت أن الحقيقة المقلقة ليست أن بعض الناس مخادعون.

بل أن الإنسان قادر على خداع نفسه بدرجة تفوق ما يتخيل. نحن لا نرى أنفسنا كما نحن.

نرى أنفسنا كما نستطيع احتمال رؤيتها.

نحذف بعض التفاصيل. ونخفف بعض الحقائق.

ونعيد تسمية أشياء كثيرة بأسماء أكثر لطفًا.

فلا يصبح الكذب كذبًا. ولا تصبح الأنانية أنانية.

ولا يصبح الظلم ظلمًا.

بل تتحول كلها إلى تفسيرات وأعداء وقصص مريحة. وهكذا نحافظ على الصورة التي نحب أن نراها في المرأة.

هذا الكتاب ليس اتهامًا لأحد.

وليس محاولة لإثبات أن البشر سيئون. بل محاولة للنظر إلى النفس من زاوية مختلفة.

زاوية قد تكون غير مريحة أحيانًا.

لكنها أكثر صدقًا. وأثناء قراءتك لهذه الصفحات، لا تسأل فقط:

من يقصد الكاتب؟

ولا تبحث عن الأشخاص الذين يشبهون هذه الأمثلة. حاول أن تطرح سؤالاً أبسط وأصعب في الوقت نفسه:

كم مرة كنتُ أنا بطل قصةٍ أخفت عني الحقيقة؟

وكم مرة كنتُ مقتنعاً أنني على حق... فقط لأنني كنتُ أنا من يفعل ذلك؟

إذا خرجت من هذا الكتاب بإجابة صادقة عن هذا السؤال، فربما يكون قد حقق غايته.

محمد أبو الفتوح

مقدمة الكتاب

ماذا لو كان أكبر كذاب في حياتك هو الشخص الذي تنتظر إليه كل صباح في المرآة؟ ليس لأنه يريد خداعك.

بل لأنه يحاول حمايتك.

حمايتك من الشعور بالذنب. ومن مواجهة الحقيقة.

ومن الاعتراف بأنك لست دائمًا على حق.

منذ آلاف السنين والبشر يبحثون عن الشر في الخارج. في المجرمين.

وفي الطغاة.

وفي الخونة. وفي الأشخاص الذين نقرأ عنهم في الأخبار ونقول بثقة:

"أنا لست مثلهم".

لكن ماذا لو كانت المشكلة الحقيقية لا تكمن في الشر نفسه؟ بل في قدرتنا المذهلة على عدم رؤيته عندما يسكن داخلنا؟

معظم البشر لا يرون أنفسهم أشرارًا.

حتى أولئك الذين تسببوا في الألم. حتى أولئك الذين ظلموا أو خدعوا أو خانوا أو قسوا.

كان لكل واحد منهم تفسير.

وكان لكل واحد منهم سبب. وكان لكل واحد منهم قصة جعلته يبدو منطقيًا في عيني نفسه.

وهنا تكمن المفارقة.

فالإنسان لا يعيش داخل الحقيقة كاملة. بل يعيش داخل الرواية التي يكتبها عن نفسه.

رواية يكون فيها غالبًا الضحية.

أو المظلوم. أو صاحب الحق.

أو الشخص الذي لم يكن يملك خيارًا آخر.

نحن نحاكم الآخرين على ما فعلوه. لكننا نحاكم أنفسنا على ما كنا ننوي فعله.

نرى نتائج أفعالهم.

ونرى نوايانا نحن. ولهذا يبدو حكمنا على أنفسنا أكثر رحمة دائمًا.

هذا الكتاب ليس رحلة للبحث عن الأشرار.

بل رحلة للبحث عن التبريرات. عن القصص التي نرويها لأنفسنا.

عن الكلمات التي نستخدمها لإخفاء الحقيقة.

عن اللحظات التي يتحول فيها الخطأ إلى وجهة نظر. والظلم إلى ضرورة.

والأنانية إلى حق مشروع.

لن نحاول هنا إثبات أن الإنسان سيئ بطبيعته. بل سنحاول فهم شيء أكثر إثارة للقلق:

كيف يستطيع إنسان عادي، يشبهني ويشبهك، أن يقترب من الخطأ خطوة بعد خطوة دون أن يشعر؟

كيف تتحول الكذبة الصغيرة إلى قناعة؟ وكيف يتحول التبرير إلى هوية؟

وكيف يصبح الإنسان قادرًا على إيذاء الآخرين بينما يظل مقتنعًا بأنه شخص جيد؟

في الصفحات القادمة لن نتحدث عنهم. سنتحدث عنا.

عن تلك المسافة الخفية بين ما نحن عليه...

وما نحب أن نعتقد أننا عليه. وربما، عندما تصل إلى الصفحة الأخيرة، لن تخرج وأنت تعرف من هو الشرير.

بل ستخرج بسؤال أصعب بكثير:

إذا كان الجميع أبرياء في قصصهم الخاصة... فمن المسؤول عن كل هذا الألم؟

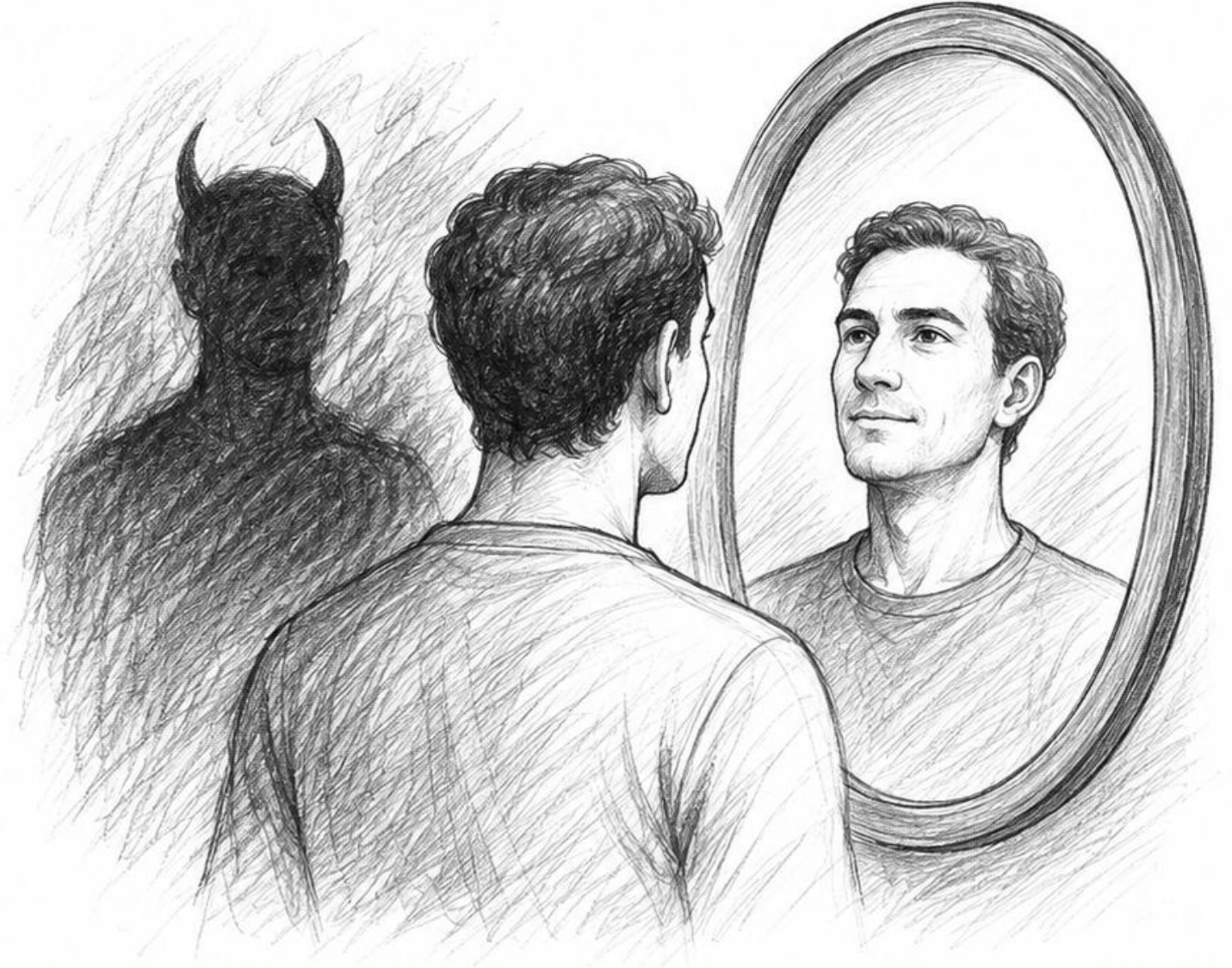
وربما يكون الجواب الأول الذي يجب أن نواجهه هو:

لست بريئًا.

الفصل الأول

لماذا لا يرى الشرير نفسه شريرا؟

كلنا أبطال قصصنا الخاصة



الفصل الأول

لماذا لا يرى الشرير نفسه شريرًا؟

كلنا أبطال قصصنا الخاصة

هناك فكرة نحب تصديقها لأنها تجعل العالم أكثر بساطة. فكرة تقول إن الخير واضح.

وأن الشر واضح.

وأن الإنسان يستطيع بسهولة أن يميز بينهما. نحب أن نتخيل أن الشرير يعرف أنه شرير.

وأن الظالم يعرف أنه ظالم.

وأن الكاذب ينظر إلى نفسه في المرآة ويرى كاذبًا. وأن الخائن يعلم في أعماقه أنه خائن.

لكن الحياة الحقيقية لا تعمل بهذه الطريقة.

بل ربما تكون الحقيقة معاكسة تمامًا. فمعظم البشر الذين تسببوا في الألم لغيرهم لم يروا أنفسهم أشرارًا يومًا.

بل رأوا أنفسهم ضحايا.

أو أصحاب حق. أو أشخاصًا اضطروا إلى ما فعلوه.

أو أشخاصًا لم يكن أمامهم خيار آخر.

ولهذا فإن السؤال الحقيقي ليس: لماذا يوجد أشرار؟

بل:

لماذا لا يرى الشرير نفسه شريرًا؟ عندما نشاهد فيلمًا، يكون من السهل أن نحدد البطل.

نعيش معه.

نسمع أفكاره. نفهم دوافعه.

نعرف مخاوفه.

ونرى العالم من خلال عينيه. ولهذا نتعاطف معه.

أما الشرير فنراه من الخارج.

نرى أفعاله فقط. ولا نعيش داخل رأسه.

ولا نعرف كيف يبرر لنفسه ما يفعل.

ولهذا يبدو الحكم عليه سهلًا. لكن الحياة مختلفة.

في الحياة لا أحد يعيش خارج نفسه.

كل إنسان يعيش داخل عقله هو. داخل قصته الخاصة.
داخل الرواية التي يكتبها كل يوم عن نفسه.
وفي تلك الرواية يكون غالبًا البطل. حتى عندما يكون سببًا في ألم الآخرين.
هناك زوجة تكذب على زوجها.
تخفي عنه أموالًا. وتدير أمورًا كاملة دون علمه.
وربما تأخذ من ماله ما لا يرضى به.
وقد يراها الآخرون مخادعة. وقد يصفها البعض بالكاذبة.
لكنها لا ترى نفسها بهذه الصورة.
هي لا تستيقظ صباحًا وتقول: "أنا امرأة مخادعة."
بل تقول:
"أنا أحمي نفسي." "أنا أؤمن مستقبلي."
"أنا أفعل ما يجب فعله."
"لو أخبرته بالحقيقة فلن يفهم." وهكذا تخفي الكلمات الحقيقية.
وتبقى القصة.
القصة التي تجعلها تبدو بريئة في عيني نفسها. وفي بيت آخر يوجد زوج أهمل زوجته سنوات طويلة.
لا يسألها كيف تشعر.
لا يعرف ما الذي يؤلمها. ولا يسمع شكواها إلا عندما تتحول إلى صراخ.
لكنه لا يرى نفسه مهملاً.
بل يرى نفسه رجلًا يحمل مسؤوليات ضخمة. يعمل ليلاً ونهارًا.
ويتحمل ضغوطًا لا يعرفها أحد.
ويرى أن تعبهُ دليل على حبه. ويرى أن إنفاقه دليل على وفائه.
ولا ينتبه إلى أن هناك إنسانًا بجواره يموت من الوحدة.
هو لا يرى نفسه زوجًا سيئًا. بل زوجًا مضحيًا.
وفي مكان آخر يوجد ابن يرفع صوته على والديه.
يتحدث إليهما بفظاظة. يسخر من نصائحهما.
ويتجاهل مشاعرهما.

وربما يتركهما يواجهان الشيوخوخة وحدهما. لكن ذلك الابن لا يرى نفسه عاقًا.

بل يرى نفسه إنسانًا يبحث عن حريته.

يرى نفسه شخصًا يحاول أن يعيش حياته. يرى نفسه ضحية للتدخل والسيطرة.

وحين ينظر إلى نفسه لا يرى العقوق.

بل يرى الاستقلال. ولا يرى الجحود.

وفي بيت آخر يقف أب يخشاه الجميع.

صوته وحده يكفي لإسكات المنزل. أبناؤه يرتبكون عندما يدخل.

ويشعرون بالخوف عندما يغضب.

ويحسبون لكل كلمة يقولونها ألف حساب. لكنه لا يرى نفسه مؤذيًا.

بل يرى نفسه أبًا ناجحًا.

ويقول: "أنا أربيهم."

"الحياة ليست سهلة".

"إذا لم أكن صارمًا فسيفسدون." وقد يكون صادقًا في حبه لهم.

لكنه لا يرى الجراح التي يتركها خلفه.

لأنه ينظر إلى نيته. بينما يعيش أبناؤه نتائج أفعاله.

وفي زاوية أخرى توجد أم لا تكون قدوة لأبنائها.

تكذب أمامهم. وتشتم الناس أمامهم.

وتنتقد الجميع.

وتطلب منهم ما لا تفعله هي. ثم تتساءل بعد سنوات:

كيف أصبحوا هكذا؟

وترى المشكلة في المدرسة. وفي الأصدقاء.

إلا نفسها.

لأن أصعب شيء على الإنسان أن يرى دوره الحقيقي في الكارثة. فمن السهل أن نرى أخطاء الآخرين.

لكن رؤية أخطائنا تحتاج إلى شجاعة نادرة.

ولهذا يعيش معظم الناس أعمارهم كلها داخل قصص مريحة. قصص تجعلهم دائمًا على الجانب الصحيح.

قصص تجعل الآخرين سبب المشكلة.

قصص تجعلهم ضحايا أكثر من كونهم مسؤولين. ومع الوقت تصبح تلك القصص جزءًا من هويتهم.

و جزءًا من شخصيتهم.

و جزءًا من الطريقة التي يرون بها العالم. حتى يصبح التفريق بين الحقيقة والتبرير أمرًا بالغ الصعوبة.

لكن الأسرة ليست المكان الوحيد الذي يحدث فيه ذلك.

فالشيء نفسه يتكرر في الشارع. وفي الأسواق.

وفي السياسة.

بل إن أكثر الجرائم رعبًا تبدأ غالبًا من القصة نفسها. قصة تجعل صاحبها مقتنعًا أنه ليس شريكًا.

بل شخصًا يفعل ما يراه صحيحًا.

ولهذا فإن فهم الشر لا يبدأ من دراسة الجرائم. بل من دراسة الإنسان نفسه.

من دراسة تلك القدرة المدهشة التي يمتلكها على إقناع نفسه بأنه بريء.

حتى عندما لا يكون كذلك.

الحاجة إلى أن نكون أشخاصًا جديدين

لو كان الإنسان يرى نفسه كما يراه الآخرون تمامًا، لكانت الحياة مختلفة كثيرًا. كانت الاعتذارات أكثر.

وكانت المراجعة الذاتية أسهل.

وكان الاعتراف بالخطأ أقل ندرة. لكن الإنسان لا يرى نفسه بهذه الطريقة.

لأنه لا يعيش مع أفعاله فقط.

بل يعيش مع نواياه أيضًا. وهنا يبدأ واحد من أهم الصراعات داخل النفس البشرية.

الصراع بين الحقيقة والصورة.

بين ما نحن عليه فعليًا. وما نريد أن نصدق أننا عليه.

فمعظم الناس لا يريدون أن يكونوا أشرارًا.

بل إن معظمهم لا يستطيع احتمال فكرة أنه قد يكون شخصًا سيئًا. ولهذا نجد أن الإنسان مستعد أحيانًا للدفاع عن صورة نفسه أكثر مما هو مستعد للدفاع عن الحقيقة.

إنه أمر يحدث كل يوم.

ويحدث في كل مكان. ويحدث غالبًا دون أن نشعر.

فالزوجة التي تكذب لا تريد أن ترى نفسها كاذبة.

والزوج المهمل لا يريد أن يرى نفسه مهملاً. والابن العاق لا يريد أن يرى نفسه عاقاً.

والأب القاسي لا يريد أن يرى نفسه مؤذياً.

والأم السيئة القدوة لا تريد أن ترى نفسها مسؤولة. الجميع يريد الاحتفاظ بصورة معينة عن نفسه.

صورة تجعله قادراً على النوم ليلاً دون أن ينهار تحت ثقل أخطائه.

وهذا مفهوم. بل طبيعي.

لكن المشكلة تبدأ عندما تصبح حماية الصورة أهم من مواجهة الحقيقة.

تخيل زوجة اكتشفت بعد سنوات أن ما تفعله لم يعد مجرد إخفاء بعض الأمور عن زوجها. بل أصبح حياة كاملة مبنية على الأسرار.

حسابات لا يعرفها.

وأموال لا يعلم عنها شيئاً. وأكاذيب صغيرة تراكمت حتى أصبحت جبلاً من الأكاذيب.

لو اعترفت لنفسها بالحقيقة كاملة، ماذا سيحدث؟

سيكون عليها أن تواجه صورة مزعجة جداً. صورة امرأة كانت تخدع إنساناً يثق بها.

وصورة شخص لم يكن صادقاً كما كان يعتقد.

ولهذا يبدأ العقل في العمل. ليس لتغيير الواقع.

بل لتغيير تفسير الواقع.

فتقول لنفسها: "لم يكن أمامي خيار."

"لقد أجبرني على ذلك".

"كنت أحمي نفسي." "كل امرأة عاقلة كانت ستفعل الشيء نفسه."

وهكذا يتحول الاعتراف إلى تبرير.

وتتحول المواجهة إلى هروب. ليس لأن الإنسان يحب الكذب دائماً.

بل لأنه يخاف الألم الذي يأتي مع الحقيقة.

والزوج المهمل يعيش المعركة نفسها. فهو لا يريد أن يصدق أن سنوات طويلة مرت دون أن يمنح شريكته ما كانت تحتاجه منه.

لا يريد أن يصدق أن وجوده الجسدي لم يكن كافياً.

ولا يريد أن يصدق أن شخصًا أحبه شعر بالوحدة وهو بجانبه. لأن هذه الحقيقة مؤلمة. ولهذا يبحث العقل عن رواية أخرى.

رواية أكثر راحة. فيقول:

"لقد فعلت كل ما أستطيع".

"كنت أعمل من أجلهم." "لم أقصر في واجباتي."

"المشكلة أنهم لا يقدرّون ما أفعله".

وهكذا ينتقل التركيز من السؤال الحقيقي إلى سؤال آخر أكثر راحة. بدل أن يسأل:

"هل أهملت؟"

يصبح السؤال: "هل قدروا تعبتي؟"

ورغم أن السؤال الثاني مهم، فإنه لا يجيب عن الأول.

والابن أو الابنة العاقلان يواجهان الصراع نفسه. فمن الصعب على أي إنسان أن يعترف بأنه جرح والديه.

من الصعب أن ينظر إلى السنوات الماضية ويكتشف أن بعض الكلمات التي قالها تركت ندوبًا لا تزال موجودة.

من الصعب أن يكتشف أن الحرية التي كان يدافع عنها تحولت أحيانًا إلى قسوة. وأن الاستقلال الذي كان يطالب به تحول أحيانًا إلى أنانية.

ولهذا يكون التبرير أسهل.

"هم لا يفهمونني." "لقد تدخلوا في حياتي كثيرًا."

"أنا لا أفعل شيئًا خاطئًا."

"من حقي أن أعيش كما أريد." وربما يكون جزء من هذا الكلام صحيحًا.

لكن الحقيقة الكاملة غالبًا أكبر من ذلك.

فالإنسان حين يتألم يرى ألمه بوضوح شديد. أما ألم الآخرين فيراه من بعيد.

ولهذا يعذر نفسه أكثر مما يعذرهم.

أما الأب القاسي فقصته ربما تكون أكثر تعقيدًا. لأنه في كثير من الأحيان لا يشعر أنه يخطئ أصلًا.

بل يشعر أنه يؤدي واجبه.

قد يكون قد تربى في بيت لا يعرف سوى الشدة. وقد يكون قد عاش حياة أقنعت أنه الرحمة ضعف.
وأن الخوف وسيلة فعالة للتربية.

فيكبر وهو مقتنع أن ما يفعله صحيح. بل وربما ضروري.

وعندما يرى أبناءه يبتعدون عنه لا يربط ذلك بقسوته.

وعندما يراهم خائفين لا يسمي ذلك خوفاً. بل احتراماً.

وعندما يراهم صامتين لا يسمي ذلك انكساراً.

بل يسميه طاعة. لأن العقل لا يرى الأشياء كما هي دائماً.

بل كما يستطيع احتمال رؤيتها.

وهنا تظهر حقيقة مزعجة. فالإنسان لا يحتاج إلى أن يكون شريراً حتى يؤدي الآخرين.

يكفي أحياناً أن يكون مقتنعاً أنه على حق.

بل إن كثيراً من الأذى في هذا العالم لا يصدر عن أشخاص يريدون الشر. بل عن أشخاص مقتنعين تماماً أنهم يفعلون الخير.

وهذا ما يجعل الأمر خطيراً.

لأن الإنسان الذي يعرف أنه مخطئ قد يتغير. أما الإنسان الذي أقنع نفسه أنه محق دائماً فلن يبحث أصلاً عن سبب للتغيير.

ولهذا لا تكون المشكلة الكبرى في الخطأ نفسه.

بل في القصة التي تمنعنا من رؤيته. وفي الصورة التي نخاف فقدانها.

وفي الحاجة العميقة داخل كل واحد منا لأن يبقى بطل قصته الخاصة.

حتى عندما تكون الحقيقة أقل جمالاً بكثير من القصة التي يرويها لنفسه.

المرآة التي لا تعكس الحقيقة كاملة

لو طلب منك أن تكتب وصفاً لشخص تعرفه جيداً، فمن المحتمل أن تذكر عيوبه بسرعة. ستتذكر المرات التي أخلف فيها وعده.

والأخطاء التي ارتكبها.

والصفات التي تزعجك فيه. لكن ماذا لو طلب منك أن تكتب الوصف نفسه عن نفسك؟

هنا تصبح المهمة أصعب بكثير.
ليس لأنك لا تعرف نفسك. بل لأنك تعرفها أكثر مما ينبغي.
تعرف دوافعك.
وتعرف ظروفك. وتعرف مخاوفك.
وتعرف الجروح التي لا يراها أحد.
ولهذا تصبح أكثر تسامحًا مع نفسك مما أنت عليه مع الآخرين. وهنا تبدأ المشكلة.
فالإنسان لا يرى نفسه من الخارج.
بل من الداخل. بينما يرى الآخرين من الخارج فقط.
وهذا وحده كافٍ ليُجعل الصورة مختلفة تمامًا.

عندما تكذب الزوجة على زوجها، فهي لا تعيش الكذبة فقط. بل تعيش الخوف الذي سبقها.
والقلق الذي رافقها.
ولهذا تبدو لها الكذبة أقل بشاعة مما تبدو لزوجها. هي ترى الطريق كله.
أما هو فيرى النتيجة فقط.
وعندما يكتشف الحقيقة لا يرى خوفها. ولا يرى دوافعها.
ولا يرى تردداتها.
يرى فقط أنها كذبت. وهكذا يعيش كل طرف نسخة مختلفة من الحدث نفسه.
نسخة تجعل أحدهما يبدو مذنبًا.
وتجعل الآخر يبدو بريئًا.

والزوج المهمل يعيش الوهم نفسه. فهو يرى ساعات العمل الطويلة.
ويرى التعب.
ويرى المسؤوليات. ويرى الضغوط التي يحملها فوق كتفيه.
لكنه لا يعيش مشاعر زوجته بالطريقة نفسها.
لا يشعر بالليالي التي انتظرت فيه. ولا بالحوارات التي كانت تحتاجها ولم تجدها.

ولا بالوحدة التي تراكت داخلها عامًا بعد عام.
ولهذا يبدو لنفسه زوجًا صالحًا. بينما قد يراه الطرف الآخر بطريقة مختلفة تمامًا.
ليس لأن أحدهما يكذب بالضرورة.
بل لأن كل واحد يرى جزءًا مختلفًا من الصورة.

والابن العاق يرى الأمور بالطريقة نفسها. هو يتذكر كل مرة شعر فيها أن والديه لم يفهما.
ويتذكر القيود.
والضغوط. ويتذكر كل لحظة شعر فيها بالظلم.
لكن ما لا يراه بنفس الوضوح هو خوفهما عليه.
وسهرهما من أجله. والقلق الذي عاشاه عندما مرض.
هو يعيش داخل جراحه الخاصة.
أما جراحهما فلا يراها إلا من الخارج. ولهذا يبدو لنفسه دائمًا أكثر حقًا مما هو عليه في الحقيقة.

والأب القاسي لا يختلف كثيرًا. هو يتذكر الأموال التي أنفقها.
والتعب الذي تحمله.
والسنوات التي عمل فيها من أجل أسرته. ويتذكر خوفه على أبنائه.
ورغبته في أن يصبحوا أفضل.
لكنه لا يعيش الألم الذي يشعرون به عندما يهينهم. ولا الانكسار الذي تتركه كلماته داخلهم.
ولا الخوف الذي يسكن قلوبهم منه.
ولهذا يرى نفسه أبًا مضحيًا. بينما قد يراه أبنؤه بصورة مختلفة تمامًا.

حتى الأم السيئة القدوة لا ترى نفسها كما يراها أبنؤها. هي تعرف نواياها الطيبة.
وتعرف أنها تحب أبنائها.
وتعرف أنها تريد لهم الخير. لكنها لا ترى بسهولة التناقض بين ما تقوله وما تفعله.
لا ترى كيف يتعلم الطفل من الأفعال أكثر مما يتعلم من الكلمات.

ولا ترى كيف تتحول الأخطاء الصغيرة المتكررة إلى دروس يومية يتلقاها الأبناء دون أن يشعر أحد.
فالأم ترى الحب الذي تحمله.
أما الأبناء فيعيشون السلوك الذي يشاهدونه.
وهناك فرق كبير بين الاثنين.

ولهذا السبب نجد أن معظم البشر مقتنعون أنهم أفضل مما يعتقد الآخرون. ليس لأنهم يتعمدون الخداع.
بل لأنهم يرون أنفسهم من زاوية لا يراها غيرهم.
كل واحد منا يحمل محامياً داخلياً بارعاً. محامياً لا يتوقف عن الدفاع عنه.
إذا أخطأنا قدم الأعذار.
وإذا فشلنا قدم التفسيرات. وإذا ظلمنا أحداً بحث عن الأسباب.
وإذا جرحنا إنساناً حاول أن يقنعنا أن الأمر لم يكن بهذا السوء.
هذا المحامي لا ينام. ولا يتعب.
ولا يتوقف عن العمل.
وفي كثير من الأحيان يكون أكثر إقناعاً من الحقيقة نفسها.

ولهذا قد تمر سنوات طويلة قبل أن يكتشف الإنسان بعض أخطائه. ليس لأنه لم يكن ذكياً.
ولا لأنه كان غيبياً.
بل لأنه كان قريباً جداً من نفسه. وقريباً جداً من قصته.
وقريباً جداً من الأعذار التي كان يردها كل يوم.
فالمرأة التي ننظر فيها إلى أنفسنا ليست امرأة عادية. إنها امرأة مليئة بالتفسيرات.
والذكريات.
والمشاعر. والرغبة في أن نبقي أشخاصاً جيدين.
ولهذا لا تعكس الحقيقة كاملة.
بل تعكس النسخة التي نستطيع التعايش معها. لكن ماذا يحدث عندما لا يكتفي الإنسان برؤية نفسه بهذه الصورة؟
ماذا يحدث عندما يبدأ في إعادة تسمية أخطائه؟

وعندما تتحول الكذبة إلى حماية؟ والأنانية إلى حق؟

هنا لا تعود المشكلة في المرأة فقط.

بل في العقل نفسه. العقل الذي يملك قدرة مذهلة على صناعة التبريرات.

وقدرة أخطر على تصديقها.

عندما يغير العقل أسماء الأشياء

من النادر أن يقف إنسان أمام المرأة ويقول لنفسه: "أنا شخص سيئ."

ومن النادر أيضاً أن يقول:

"أنا ظالم." أو:

"أنا أناني."

أو: "أنا كاذب."

ليس لأن هذه الصفات لا توجد عند البشر.

بل لأن العقل يملك طريقة أكثر راحة للتعامل معها. طريقة تعتمد على شيء بسيط جداً.

تغيير الأسماء.

فالإنسان لا يغير أفعاله أولاً. بل يغير الكلمات التي يصف بها تلك الأفعال.

ومن هنا تبدأ واحدة من أخطر العمليات النفسية التي يمكن أن تحدث.

عملية تجعل الخطأ يبدو أقل خطأ. والظلم أقل ظلماً.

والكذب أقل كذباً.

حتى يختفي الشعور بالذنب تدريجياً.

فالزوجة التي تكذب على زوجها لا تستخدم كلمة "كذب" في حديثها مع نفسها. الكلمة ثقيلة.

وحادة.

ومزعجة. وتهدد الصورة التي تحب أن تراها عن نفسها.

ولهذا تستبدلها بكلمات أخرى.

فتقول: "أنا أخفي بعض الأمور."

"أنا لا أقول كل شيء."

"أنا أتجنب المشكلات." "أنا أحمي نفسي."

ومع مرور الوقت تختفي الكلمة الأصلية تمامًا.
ولا تعود ترى نفسها امرأة تكذب. بل امرأة تتصرف بحكمة.
وهنا تكمن الخطورة.
فالفعل لم يتغير. لكن اسمه تغير.
ومع تغير الاسم تغير الشعور تجاهه.

والزوج المهمل يفعل الشيء نفسه. فهو لا يقول:
"أنا أهملت زوجتي".
بل يقول: "أنا مشغول".
"أنا متعب".
"أنا أتحمل مسؤوليات ضخمة." "أنا أفعل كل هذا من أجل الأسرة."
وفي كثير من الأحيان يكون كلامه صحيحًا جزئيًا.
لكنه ليس الحقيقة كلها. فهو يركز على الجزء الذي يجعله يبدو أفضل.
ويتجاهل الجزء الذي يجعله مضطربًا إلى مراجعة نفسه.
وهكذا تتحول سنوات الإهمال إلى سنوات التضحية في روايته الخاصة. بينما يعيش الطرف الآخر قصة مختلفة تمامًا.

والابن العاق نادرًا ما يستخدم كلمة "عقوق". بل يستبدلها بكلمات أكثر جمالًا.
فيقول:
"أنا مستقل." "أنا أعيش حياتي."
"أنا أرفض السيطرة."
"أنا لا أسمح لأحد أن يتحكم بي." وقد يكون بعض ذلك صحيحًا فعليًا.
لكن الاستقلال شيء.
وقسوة القلب شيء آخر. والحرية شيء.
لكن العقل لا يحب هذه الفروق عندما تكون ضده.
ولهذا يدمجها كلها داخل قصة واحدة تجعله يبدو بريئًا.

والأب العنيف لا يسمي عنفه عنفاً. بل يسميه حزمًا.
ولا يسمي الإهانة إهانة.
ومع مرور السنوات يصبح مقتنعًا تمامًا أن أبناءه يحتاجون إلى ما يفعله. وربما يشعر بالفخر أيضًا.
لأنه يعتقد أنه يفعل ما عجز عنه الآخرون.
لكنه لا يرى شيئًا مهمًا. لا يرى أن الطفل قد يطيع خوفًا لا احترامًا.
وقد يصمت انكسارًا لا اقتناعًا.
وقد يبتعد حمايةً لنفسه لا تمردًا. لكن هذه الحقائق لا تظهر بسهولة لمن يعيش داخل القصة.

والأم السيئة القدوة تفعل الأمر نفسه. فعندما تكذب أمام أبنائها لا تقول لنفسها إنها تعلمهم الكذب.
بل تقول إنها مضطرة.
وعندما تسيء للناس لا ترى أنها تقدم نموذجًا سيئًا. بل ترى أنها تعبر عن رأيها.
وعندما تناقض نفسها لا ترى أنها تزرع التناقض في عقول أبنائها.
بل ترى أن الظروف تغيرت. ودائمًا توجد قصة.
ودائمًا يوجد اسم جديد للفعل القديم.

لكن الأمر لا يتوقف عند الأسرة. بل يمتد إلى كل مكان.
فالسارق أيضًا لا يحب كلمة "لص".
هي كلمة قاسية جدًا. ولهذا يستبدلها بقصة أخرى.
قد يقول:
"أنا أسترده حقي." "أنا آخذ مما يملكونه الكثير."
"المجتمع ظلمني."
"لم يتركوا لي خيارًا." وهكذا تتحول السرقة إلى تصحيح للظلم في روايته الخاصة.
ويتحول الضحية إلى شخص يستحق ما حدث له.
ويتحول اللص إلى بطل يحاول النجاة.

والمحتال لا يرى نفسه محتالاً. بل ذكياً.

ولهذا يشعر بالفخر أحياناً بدل الندم.

لأن القصة التي يعيش داخلها مختلفة تماماً عن القصة التي يراها الناس.

والسياسي الفاسد لا يجلس غالباً وهو يفكر في نفسه كفاسد. بل يرى نفسه رجل دولة.

وصاحب خبرة.

وربما يقتنع نفسه أن بعض التجاوزات ضرورية. وأن بعض الأموال لا تغير شيئاً.

وأن الجميع يفعلون الشيء نفسه.

وهكذا يصبح الفساد مجرد تفصيل صغير داخل قصة أكبر تجعله يبدو مهماً ومفيداً وضرورياً.

أما قادة الحروب فهم ربما المثال الأكثر رعباً. لأنهم نادراً ما يقدمون أنفسهم باعتبارهم سبباً للمأساة.

بل باعتبارهم منقذين.

ومحررين. يجدون دائماً كلمات تجعل كل ذلك يبدو ضرورة.

وهنا يصل التبرير إلى أقصى درجاته.

فالإنسان يصبح قادراً على رؤية المأساة نفسها باعتبارها إنجازاً. إذا امتلك القصة المناسبة لتفسيرها.

ولهذا لا يبدأ الشر غالباً بالفعل. بل بالكلمة التي تسبقه.

بالاسم الجديد الذي نعطيه للفعل.

بالقصة التي نجعلها أكثر أهمية من الحقيقة. وبالتفسير الذي نرده حتى نصدق.

فالكاذب لا يصبح كاذباً في يوم واحد.

والظالم لا يصبح ظالماً في يوم واحد. والفاسد لا يصبح فاسداً في يوم واحد.

بل تبدأ الحكاية كلها عندما ينجح الإنسان في إقناع نفسه أن الخطأ ليس خطأ.

وفي اللحظة التي يصدق فيها ذلك... يصبح كل شيء آخر أسهل بكثير.

أخطر البشر ليسوا من يعرفون أنهم مخطئون

هناك اعتقاد شائع يقول إن الخطر الحقيقي يأتي من الأشخاص السيئين. من الكاذبين. ومن الظالمين.

ومن الفاسدين. لكن الحقيقة أكثر تعقيداً من ذلك.

فالكثير من هؤلاء يمكن أن يتغيروا.

يمكن أن يندموا. ويمكن أن يعترفوا.

ويمكن أن يتراجعوا.

لأنهم ما زالوا يعرفون في أعماقهم أن هناك شيئاً خاطئاً. أما الخطر الحقيقي فيبدأ عندما يختفي هذا الشعور.

عندما لا يعود الإنسان يرى خطأه أصلاً.

عندما يصبح مقتنعاً تماماً أنه على حق. عندها لا يعود هناك ما يدفعه إلى المراجعة.

ولا ما يدفعه إلى الاعتذار.

ولا ما يدفعه إلى التغيير. فكيف يمكن لإنسان أن يصلح شيئاً لا يراه مكسوراً؟

تخيل زوجة تم اكتشاف أكاذيبها بعد سنوات. ظهرت الحقائق.

وانكشفت الأسرار.

وثبت ما كانت تنكره. ومع ذلك لا تشعر بأي مسؤولية حقيقية.

لا تبدأ بالسؤال:

"لماذا فعلت ذلك؟" بل تبدأ بسؤال مختلف تماماً:

"ولماذا لا يتحدث أحد عما فعله هو؟"

فجأة يتحول الحديث كله إلى الزوج. إلى أخطائه.

إلى تفصيله.

إلى عيوبه. إلى كل شيء...

إلا ما فعلته هي.

ليس لأن تلك الأخطاء غير موجودة. بل لأن العقل يبحث عن مخرج.

عن أي شيء يبعد الضوء عن الخطأ الأصلي.

وعندما ينجح في ذلك يشعر براحة مؤقتة. لكن الحقيقة تبقى في مكانها.

لا تختفي.

ولا تتغير.

والزوج المهمل قد يفعل الشيء نفسه. عندما تخبره زوجته أنها عاشت سنوات من الوحدة.

لا يسأل نفسه فوراً إن كان جزءاً من المشكلة.

بل يبدأ في تعداد ما قدمه. كم عمل.

وكم أنفق.

وكم ضحى. وكأن قائمة التضحيات أصبحت كافية لإلغاء قائمة الأخطاء.

مع أن الأمرين قد يكونان صحيحين في الوقت نفسه.

قد يكون رجلاً مجتهداً. ومهماً في الوقت نفسه.

قد يكون مضحياً.

ومقصراً في الوقت نفسه. لكن الإنسان لا يحب الحقائق المعقدة.

يفضل الروايات البسيطة.

الروايات التي تضعه بالكامل في جانب الخير.

والابن العاق أحياناً يفعل الأمر ذاته. كلما تحدث أحد عن طريقته في التعامل مع والديه، عاد إلى الماضي.

إلى أخطاء الأب.

وأخطاء الأم. وإلى كل ما تعرض له.

وربما تكون تلك الأخطاء حقيقية فعلاً.

لكن السؤال يبقى قائماً: هل أخطاء الماضي تلغي مسؤولية الحاضر؟

هل الجرح يعطي الإنسان حقاً مفتوحاً في جرح الآخرين؟

هل الألم يتحول تلقائياً إلى عذر دائم؟ العقل يحب أن يجيب بنعم.

لأن نعم مريحة.

أما الحقيقة فغالباً أكثر إزعاجاً.

وأحياناً يصل الإنسان إلى مرحلة أخطر. مرحلة لا يكتفي فيها بتبرير الخطأ.
بل يبدأ بالدفاع عنه.
ثم الإعجاب به. في البداية يكذب لأنه خائف.
ثم يصبح الكذب مهارة.
ثم يصبح ذكاءً. وهكذا لا يعود الخطأ مجرد سلوك.
بل يتحول إلى جزء من الهوية.
و جزء من الشخصية. و جزء من الطريقة التي يرى بها الإنسان نفسه والعالم.

ولهذا كان التاريخ مليئاً بأشخاص ارتكبوا أشياء مرعبة وهم مقتنعون أنهم أبطال. لم يكن الطغاة يقدمون أنفسهم كطغاة.
ولا الفاسدون كفاسدين.
ولا قادة الحروب كصناع للمآسي. كل واحد منهم كان يملك قصة.
قصة تجعله يبدو منقذاً.
أو مصلحاً. أو صاحب رسالة.
أو رجلاً يفعل ما لا يجرؤ الآخرون على فعله.
وهذا ما يجعل الشر خطيراً. فهو لا يأتي غالباً مرتدياً وجه الشر.
بل يأتي مرتدياً وجوهاً جميلة.
وجه العدالة.

الأب الذي يحطم أبناءه قد يفعل ذلك بدافع الحب. والزوج الذي يهمل قد يقنع نفسه أنه يفعل ذلك من أجل أسرته.
والزوجة التي تخدع قد تقنع نفسها أنها تحمي مستقبلها.
والسياسي الفاسد قد يقنع نفسه أنه يخدم وطنه. وقائد الحرب قد يقنع نفسه أنه ينقذ شعبه.
وهنا تكمن المأساة.
فالنية الحسنة لا تمنع الخطأ دائماً. والقناعة لا تجعل الإنسان محقاً دائماً.
والإخلاص لفكرة ما لا يحولها تلقائياً إلى حقيقة.

ولهذا فإن أكثر البشر أمانًا ليسوا الذين يخطئون أقل. بل الذين يراجعون أنفسهم أكثر.

الذين ما زالوا قادرين على الشك في قصصهم الخاصة.

الذين ما زالوا قادرين على طرح سؤال بسيط لكنه مؤلم: ماذا لو كنت مخطئًا؟

ماذا لو لم تكن الصورة التي أراها عن نفسي كاملة؟

ماذا لو كان الآخرون يرون شيئًا لا أراه؟ هذا السؤال مؤلم.

لكنه يحمي الإنسان.

يحميه من الغرور. ومن العمى.

ومن السقوط داخل القصة التي صنعها لنفسه.

أما الإنسان الذي توقف عن طرح هذا السؤال... فقد بدأ يفقد أهم شيء يملكه.

قدرته على رؤية الحقيقة.

وهنا نصل إلى نقطة خطيرة. إذا كان الإنسان قادرًا على تبرير أفعاله بهذا الشكل...

وإذا كان قادرًا على إعادة تسمية أخطائه...

وإذا كان قادرًا على إقناع نفسه أنه البطل دائمًا... فمن أين تبدأ هذه العملية أصلاً؟

ما هي الكذبة الأولى التي تسمح لكل هذه الأكاذيب أن تولد؟

ما هي الفكرة الصغيرة التي تفتح الباب أمام كل التبريرات اللاحقة؟ الإجابة تبدأ من جملة قصيرة جدًا.

جملة تبدو بريئة.

لكنها قد تكون أصل معظم خداع الإنسان لنفسه: "حالتي مختلفة".

"أنا استثناء".

ومن هنا تبدأ الكذبة التي نصدقها أولاً...

الفصل الثاني

الكذبة التي نصدقها أولاً أنا مختلف



كما يفعل الآخرون

حالي مختلفة

الفصل الثاني

الكذبة التي نصدقها أولاً

أنا مختلف

معظم الأكاذيب الكبيرة لا تبدأ بكذبة كبيرة. بل تبدأ بجملة صغيرة جدًا. جملة تبدو منطقية.

ومقنعة. وربما صحيحة جزئيًا.

لكنها تحمل داخلها بذرة عشرات الأكاذيب الأخرى.

هذه الجملة هي: "حالي مختلفة".

أو بصيغة أخرى:

"أنا استثناء." قد تبدو عبارة عادية.

لكنها واحدة من أخطر العبارات التي يرددّها الإنسان لنفسه.

لأنها لا تبرر فعلاً واحداً فقط. بل تعيد تشكيل الطريقة التي يرى بها نفسه.

والطريقة التي يحكم بها على أفعاله.

والطريقة التي يقارن بها نفسه بالآخرين.

نحن نحب القواعد عندما تطبق على الآخرين. لكننا نحب الاستثناءات عندما يتعلق الأمر بنا. نحب الصدق.

لكننا نبحث عن الأعذار عندما نكذب. نحب الوفاء.

لكننا نطلب التفهم عندما نخون الثقة.

نحب العدل. لكننا نطلب الرحمة عندما نكون نحن المخطئين.

وهكذا تبدأ الكذبة الأولى.

ليست: "أنا كاذب."

ولا:

"أنا ظالم." بل:

"قصتي مختلفة."

"ظروفي مختلفة." "لو عرف الناس ما أعرفه لفهموا لماذا فعلت ذلك."

هناك زوجة تعرف أن الكذب خطأ. ولو سمعت قصة امرأة أخرى تخدع زوجها ربما أدانتها بشدة.
وربما قالت:

"كيف تستطيع أن تعيش بهذه الطريقة؟" لكن عندما يتعلق الأمر بها هي، تتغير القصة.

فهي لا ترى نفسها مثل تلك المرأة.

ترى نفسها مختلفة. تقول:

"هي تكذب لأنها مخادعة".

"أما أنا فأكذب لأن ظروفى صعبة." "هي تخفي المال طمعًا."

"أما أنا فأخفيه خوفًا".

"هي تخدع." "أما أنا فأحمي نفسي."

الفعل نفسه تقريبًا.

لكن الحكم مختلف تمامًا. ليس لأن الحقيقة تغيرت.

بل لأن الإنسان أصبح طرفًا في القصة.

وحين يصبح طرفًا فيها، يبدأ في رؤية نفسه بعين أكثر رحمة. وأقل عدالة أحيانًا.

والزوج المهمل يقع في الفخ نفسه. فلو سمع عن رجل لا يهتم بزوجه.

ولا يعرف شيئًا عن حياتها.

ولا يستمع إليها. فقد يصفه بالأناني.

أو الفاشل.

أو غير المسؤول. لكن عندما يتعلق الأمر به هو، تتغير اللغة.

فلا يعود إهمالًا.

بل يصبح انشغالًا. ولا يعود تقصيرًا.

والابن العاق يفعل الأمر نفسه. إذا رأى شخصًا يرفع صوته على والديه فقد يستنكر ذلك.

وقد يشعر بالغضب.

وقد يعتبره جاحدًا. لكن عندما يرفع هو صوته، تصبح القصة مختلفة.

فهو لا يرى نفسه قليل الأدب.

بل صريحًا. ولا يرى نفسه عاقًا.

حين يكون الفاعل شخصًا آخر يكون الحكم قاسيًا.

وحين يكون الفاعل هو نفسه يصبح الحكم أكثر لينًا. وأكثر تسامحًا.

وأكثر استعدادًا للبحث عن الأعذار.

وهنا تبدأ المشكلة الحقيقية. فالكذبة الأولى لا تقول للإنسان إنه كامل.

ولا تقول إنه لا يخطئ.

بل تقول له شيئًا أخطر بكثير: "أخطأك مختلفة".

"أخطأك مفهومة".

"أخطأك تستحق الاستثناء." وهذه هي اللحظة التي يبدأ فيها الضمير بفقدان قدرته على المحاسبة العادلة.

لأن الإنسان لم يعد يقارن نفسه بالمعيار نفسه الذي يقارن به الآخرين.

بل صنع لنفسه معيارًا خاصًا. ومحكمة خاصة.

وحياة كاملة مبنية على فكرة واحدة:

"أنا لست مثلهم." بينما الحقيقة التي يهرب منها معظم البشر هي أنهم أقرب إلى الآخرين مما يعتقدون بكثير.

عندما يصبح الخطأ استثناءً

في البداية لا يحاول الإنسان تبرير كل شيء. بل يحاول تبرير موقف واحد فقط.

خطأ واحد.

تصرف واحد. قرار واحد.

ويبدو الأمر بسيطًا.

بل وربما غير مهم. يقول لنفسه:

"هذه المرة فقط".

"الظروف أجبرتني." "الأمر مختلف."

ثم تمر الأيام.

ويأتي موقف آخر. وفي كل مرة يحصل الخطأ على الاستثناء نفسه.

حتى يتحول الاستثناء إلى قاعدة.

والقاعدة إلى أسلوب حياة. وهنا يبدأ الإنسان في الابتعاد عن الحقيقة دون أن يشعر.

هناك زوجة بدأت بكذبة صغيرة. كذبة واحدة فقط.

قالت لنفسها إنها ضرورية.

ثم جاءت كذبة ثانية. وثالثة.

ومع الوقت لم تعد المشكلة في الكذبة نفسها.

بل في أن العقل أصبح مستعدًا دائمًا لإيجاد سبب جديد لها. كل مرة توجد قصة.

وكل مرة يوجد مبرر.

وكل مرة يوجد استثناء. حتى تصل إلى لحظة لا تعود ترى فيها نفسها امرأة تكذب.

بل امرأة تعرف كيف تدير الأمور.

وهنا لا تكون الكذبة قد تغيرت. بل تكون نظرتها إليها هي التي تغيرت.

والزوج المهمل لا يستيقظ فجأة بعد عشر سنوات ليصبح مهملاً. الأمر يحدث ببطء.

يؤجل حديثاً مهماً.

ثم يؤجل اهتماماً بسيطاً. ثم يتجاهل شكوى.

"غداً".

"عندما أرتاح." "عندما تنتهي الضغوط."

"عندما يصبح لدي وقت."

لكن الغد لا يأتي أبداً. والوقت لا يصبح كافياً أبداً.

وفجأة يكتشف أن سنوات كاملة مرت.

وأن ما كان استثناءً أصبح واقعاً دائماً.

والابن العاق لا يبدأ حياته عاقًا. بل يبدأ بموقف صغير.
ثم يبرره.

في البداية يشعر بالذنب عندما يرفع صوته. ثم يقل الذنب.
ثم يختفي.

وفي النهاية يصبح مقتنعًا أن ما يفعله عادي. بل وربما مبرر.
وهكذا لا يختفي الضمير فجأة.

كما تتآكل الصخور تحت الماء عامًا بعد عام.

ولهذا فإن أخطر ما في الخطأ ليس الخطأ نفسه. بل اعتياده.

فالإنسان يستطيع مقاومة شيء يشعر أنه غريب عنه.

لكنه يجد صعوبة في مقاومة شيء أصبح جزءًا من حياته اليومية. في البداية يرفضه.
ثم يتسامح معه.

ثم يتقبله. وهنا تبدأ مرحلة جديدة أكثر خطورة.

مرحلة لا يعود فيها الإنسان يبرر الخطأ فقط.

بل يبدأ في إعادة تعريفه بالكامل.

فالغش لا يعود غشًا. بل ذكاء.

والخداع لا يعود خداعًا.

ليس في الواقع. بل داخل العقل.

وهذا هو المكان الذي تبدأ فيه الكذبة بالنمو.

لأن الإنسان لم يعد يدافع عن فعل واحد. بل أصبح يدافع عن طريقة كاملة لرؤية العالم.

السارق لا يبدأ بالقول: "أنا لص."

بل يبدأ بالقول:

"أنا مظلوم." ثم:

"أنا أستحق أكثر".

ثم: "ما أخذته ليس مهماً".

ثم:

"الجميع يفعلون الشيء نفسه." ثم:

"أنا فقط أخذت حقّي".

وفي النهاية يختفي اللص من القصة كلها. ويبقى الضحية.

لكن الضحية هذه المرة ليست الشخص الذي سُرِق.

بل السارق نفسه في نظر نفسه.

والسياسي الفاسد لا يبدأ باعتبار نفسه فاسدًا. بل باعتبار نفسه شخصًا يستحق بعض الامتيازات.
ثم بعض الاستثناءات.

ثم بعض التجاوزات. وفي النهاية يصبح مقتنعًا أن ما يفعله طبيعي.

بل وربما ضروري من أجل المصلحة العامة.

وهكذا يصبح الفساد جزءًا من النظام الذي يعيش داخله. وجزءًا من الصورة التي يرى بها نفسه.

ولهذا فإن الكذبة الأولى نادرًا ما تكون خطيرة وحدها. خطورتها الحقيقية أنها تفتح الباب.

تسمح للإنسان أن يعامل نفسه بطريقة مختلفة.

أن يمنح نفسه استثناءات لا يمنحها للآخرين. أن يغفر لنفسه ما لا يغفره لغيره.

أن يفهم نفسه أكثر مما يفهم الآخرين.

وأن يحاكم العالم كله بمعيار... ويحاكم نفسه بمعيار آخر.

رحلة يتحول فيها الخطأ من فعل مؤقت...

إلى هوية كاملة يعيش الإنسان داخلها دون أن يشعر.

كيف تتحول الكذبة إلى هوية

في البداية تكون الكذبة مجرد فكرة. فكرة صغيرة جدًا.

تكاد لا تُرى.

فكرة تقول: "هذه المرة مختلفة".

ثم تتكرر.

ثم تتكرر مرة أخرى. ثم تبدأ في التمدد داخل العقل ببطء.

حتى تتحول من فكرة إلى قناعة.

ومن قناعة إلى عادة. ومن عادة إلى جزء من الشخصية.

وهنا تبدأ المرحلة الأخطر.

المرحلة التي لا يعود فيها الإنسان يمارس السلوك فقط. بل يصبح السلوك جزءًا من تعريفه لنفسه.

في البداية قد تكذب الزوجة وتشعر بالذنب. تنزعج.

وتقلق.

وتخاف من انكشاف الأمر. لكن مع الوقت يحدث شيء غريب.

إذا تكرر الفعل كثيرًا دون مواجهة حقيقية، يبدأ الشعور بالذنب في التراجع.

ثم يضعف. ثم يختفي شيئًا فشيئًا.

حتى تصبح الأكاذيب جزءًا عاديًا من الحياة اليومية.

وفي النهاية لا تعود ترى نفسها امرأة تكذب. بل امرأة تعرف كيف تتعامل مع الظروف.

وهنا لا تتغير الأكاذيب.

بل تتغير هويتها هي.

والزوج المهمل يمر بالرحلة نفسها. في البداية يسمع شكوى زوجته.

ويتألم قليلًا.

ويعد بالتغيير. ثم تصبح جزءًا من الضجيج اليومي.

وفي النهاية لا يعود يرى المشكلة أصلًا.

بل يصبح مقتنعًا أن الطرف الآخر يبالغ. وأن مطالبه غير واقعية.

وأن المشكلة ليست فيه.

وهكذا لا يعود الإهمال سلوكًا مؤقتًا. بل يصبح طريقة حياة.

والابن العاق يبدأ غالبًا بالطريقة نفسها. في البداية يندم عندما يرفع صوته.
ثم يبرر.

ثم يكرر. ثم يبدأ في رؤية نفسه بصورة جديدة.

لم يعد ابنًا قليل الأدب.

بل شخصًا قويًا. ولم يعد قاسيًا.

وهكذا يعيد العقل بناء الهوية كلها حول الفعل.

حتى يصبح التراجع عنه أشبه بالتراجع عن الذات نفسها.

ولهذا نجد أن بعض الناس يغضبون بشدة عندما تُنتقد أفعالهم. أكثر مما يغضبون من الفعل نفسه.

لأنهم لم يعودوا يرون الفعل منفصلاً عن شخصيتهم.

عندما تنتقد الكذب يشعرون أنك تهاجمهم. وعندما تنتقد القسوة يشعرون أنك تهاجمهم.

وعندما تنتقد الأنانية يشعرون أنك تهاجمهم.

لأن الخطأ لم يعد خطأً بالنسبة لهم. بل أصبح جزءًا من صورتهم عن أنفسهم.

ولهذا يدافعون عنه كما يدافع الإنسان عن نفسه.

السارق الذي يسرق مرة قد يشعر بالخوف. أما السارق الذي سرق مئات المرات فغالبًا يشعر بشيء مختلف.

يشعر أن ما يفعله طبيعي.

بل قد يشعر بالاستحقاق. قد ينظر إلى الآخرين ويقول:

"لو كانوا مكاني لفعلوا الشيء نفسه".

"أنا فقط أملك الشجاعة." "أنا أعرف كيف أحصل على ما أريد."

لاحظ كيف تغيرت القصة.

في البداية كان هناك خطأ. أما الآن فهناك هوية كاملة.

هو لم يعد يرى نفسه شخصًا يسرق.

بل شخصًا يعرف كيف يعيش.

والمحتال يفعل الشيء نفسه. في البداية يخدع شخصًا.

ثم شخصين.

ثم عشرات. وفي النهاية قد يجلس بين الناس ويتحدث عن ذكائه.

وعن نجاحه.

وعن قدرته على إقناع الآخرين. بينما الحقيقة التي لا يراها أنه يتحدث عن خداعه وكأنه إنجاز.

لأن هويته أصبحت مرتبطة به.

وهذا ما يجعل التغيير صعبًا جدًا. فالتخلي عن سلوك عابر أسهل بكثير من التخلي عن هوية كاملة.

أسهل أن تعترف بكذبة.

من أن تعترف أنك أصبحت شخصًا اعتاد الكذب. وأسهل أن تعترف بموقف قاسٍ.

من أن تعترف أن القسوة أصبحت جزءًا من شخصيتك.

وأسهل أن تعترف بخطأ واحد. من أن تعترف أن حياتك كلها بدأت تدور حول تبرير الأخطاء.

ولهذا لا يكون السؤال الحقيقي: لماذا أخطأ الإنسان؟

بل:

كيف أصبح الخطأ جزءًا منه؟ كيف انتقل من فعل مؤقت إلى تعريف دائم للنفس؟

كيف وصل إلى مرحلة لم يعد يرى فيها المشكلة أصلًا؟

الإجابة تبدأ دائمًا بالطريقة نفسها. فكرة صغيرة.

ثم تكرار.

ثم اعتياد. وهكذا تتحول الكذبة التي بدأ بها كل شيء...

إلى عدسة يرى من خلالها العالم كله.

لكن هناك مرحلة أخطر من ذلك كله. مرحلة لا يكتفي فيها الإنسان بإقناع نفسه أنه استثناء.

ولا يكتفي فيها بتحويل الخطأ إلى جزء من هويته.

بل يبدأ في تحويل الخطأ نفسه إلى فضيلة. فيصبح الغش ذكاءً.

والخيانة رد فعل مفهوماً.

والأنانية احتراماً للنفس. وعندها لا يعود الإنسان يدافع عن الخطأ فقط...

بل يبدأ بالإعجاب به.

وهنا تصل الكذبة إلى أكثر مراحلها خطورة.

عندما يصبح الغش ذكاءً والخيانة رد فعل

من أخطر المراحل التي يصل إليها الإنسان تلك اللحظة التي لا يعود فيها يبرر الخطأ فقط. بل يبدأ في احترامه.

وفي بعض الأحيان الإعجاب به.

ثم اعتباره دليلاً على الذكاء أو القوة أو النضج. وهنا لا يكون الضمير قد اختفى تماماً.

لكنه أصبح يتحدث بصوت خافت جداً.

صوت يغرق وسط عشرات التبريرات الأخرى.

في البداية كان الغش خطأ. ثم أصبح استثناءً.

ثم أصبح وسيلة.

ثم تحول إلى شيء يفتخر به صاحبه. ولهذا نادراً ما تسمع شخصاً يقول عن نفسه:

"أنا غشاش".

الكلمة قاسية. وحادة.

ومزعجة.

لكنك قد تسمعه يقول: "أنا أعرف كيف أستفيد من الفرص".

أو:

"أنا أذكى من الآخرين." أو:

"أنا لا أسمح لأحد باستغلالني".

وهكذا تختفي كلمة الغش. ويظهر بدلاً منها قاموس كامل من الكلمات الجميلة.

كلمات تجعل الفعل نفسه يبدو مختلفاً.

مع أنه لم يتغير.

في المدرسة قد يبدأ الأمر بورقة صغيرة. أو إجابة من زميل.
أو طريقة للتحايل على النظام.
وفي البداية يشعر الإنسان بشيء من القلق. لكن عندما ينجح.
وعندما يحصل على النتيجة التي يريدها.
يبدأ العقل في إعادة تفسير ما حدث. لم يعد غشاً.
بل ذكاءً.
ولم يعد تجاوزاً للقواعد.

وفي الحياة العملية يحدث الأمر نفسه. الموظف الذي يحصل على ما لا يستحق.
أو يتجاوز غيره بطرق غير نزيهة.
أو يستغل منصبه لتحقيق مصالح خاصة. لا يرى نفسه دائماً فاسداً.
بل يرى نفسه شخصاً يعرف كيف يستفيد من الفرص.
وقد ينظر إلى الصادقين باعتبارهم ساذجين. وينظر إلى الأمانة باعتبارها ضعفاً.
وينظر إلى النزاهة باعتبارها مثالية غير واقعية.
وهنا تتقلب المعايير بالكامل. فيصبح الخطأ قوة.
ويصبح الصواب سذاجة.

والخيانة تسلك الطريق نفسه. فلا أحد تقريباً يبدأ الخيانة وهو يقول لنفسه:
"سأكون خائناً".

بل يبدأ الأمر غالباً بقصة. قصة طويلة من التبريرات.
قد يقول الزوج:

"لم أجد التقدير." "لم أجد الاهتمام."

"لم أجد من يفهمني."

وقد تقول الزوجة: "لقد أهملني."

"لقد جرحني".

"لقد خذلني." وربما تكون بعض هذه المشاعر حقيقية.

وربما يكون الألم حقيقياً أيضاً.

لكن المشكلة تبدأ عندما يتحول الألم إلى ترخيص. عندما يصبح الجرح تصریحاً مفتوحاً لفعل أي شيء.

عندما تتحول الخيانة من خطأ إلى رد فعل يبدو مبرراً.

وهنا ينجح العقل مرة أخرى في نقل مركز القصة. فبدل أن يسأل الإنسان نفسه:

"ماذا فعلت؟"

يبدأ بالسؤال: "ماذا فعلوا بي؟"

وبدل أن ينظر إلى قراره.

ينظر إلى أسباب قراره. وبدل أن يواجه الفعل.

يواجه الظروف التي سبقتة.

وهكذا يبتعد شيئاً فشيئاً عن الحقيقة الأساسية. وهي أن وجود خطأ سابق لا يحول الخطأ اللاحق إلى صواب.

إذا جرحك شخص فلا يصبح جرحه عدالة.

وإذا أهملك شخص فلا تصبح خيانتك وفاءً. وإذا ظلمك شخص فلا يتحول ظلمك إلى حق.

لكن العقل يحب القصص التي تخفف الشعور بالذنب.

ولهذا يكررها حتى يصدقها.

ثم تأتي الأنانية. وربما لا توجد صفة أعاد البشر تجميلها في العصر الحديث أكثر من هذه الصفة.

فقليل من الناس يحبون أن يصفوا أنفسهم بالأنانيين.

لكن كثيرين يحبون أوصافاً أخرى قريبة جداً منها. مثل:

"أنا أضع نفسي أولاً".

"أنا أحمي سلامي النفسي." "أنا أختار راحتني."

"أنا لا أعيش لإرضاء الآخرين".

وبعض هذه العبارات صحيحة فعلاً. فالإنسان يحتاج إلى حدود.

ويحتاج إلى احترام ذاته.
ويحتاج إلى العناية بنفسه. لكن المشكلة تبدأ عندما يختفي الخط الفاصل بين احترام النفس وعبادة النفس.
بين الاهتمام بالنفس والأنانية.
بين الحدود الصحية واللامبالاة بالآخرين.

قد يقضي أب سنوات يضع رغباته فوق احتياجات أسرته. ثم يقول:

"لقد تعبت كثيرًا وأستحق أن أعيش لنفسي".

وقد يقضي ابن سنوات لا يرى إلا أحلامه ومشاريعه ومصالحه. ثم يسمى ذلك نضجًا.

وقد تقضي زوجة سنوات لا تفكر إلا في نفسها.

ثم تسمى ذلك قوة شخصية. وفي كل الحالات يحدث الشيء نفسه.

الفعل لا يتغير.

لكن اسمه يتغير. والإنسان يصدق الاسم الجديد.

وهكذا تتجمع الخيوط كلها في مكان واحد. الغش لا يبدأ بالغش.

والخيانة لا تبدأ بالخيانة.

والأنانية لا تبدأ بالأنانية. كلها تبدأ من الفكرة نفسها.

الفكرة التي قابلناها في بداية هذا الفصل.

الفكرة التي تقول: "أنا مختلف".

"حالتي استثنائية".

"القواعد التي تنطبق على الآخرين لا تنطبق علي بالطريقة نفسها." ومن هذه الفكرة الصغيرة تولد عشرات الأفكار الأخرى.

وتنمو.

وتكبر. فلسفة تجعل الإنسان دائمًا الطرف المفهوم.

والطرف المبرر.

والطرف الذي يملك الأعداء الكافية. لكن يبقى سؤال مزعج.

إذا كان الإنسان قادرًا على إقناع نفسه بكل ذلك...

إذا كان قادرًا على رؤية نفسه دائمًا بصورة أفضل من الحقيقة... فماذا كان سيحدث لو عاش حياة شخص آخر بالكامل؟

لو وُلد في ظروف مختلفة؟

وفي أسرة مختلفة؟ وتعرض لآلام مختلفة؟

هل كان سيبقى الشخص نفسه؟

أم كان سيتحول إلى إنسان آخر تمامًا؟ وهذا هو السؤال الذي يقودنا إلى الفصل القادم.

الإنسان الذي فقد القدرة على رؤية نفسه

ربما لا يوجد فقدان أخطر من فقدان البصر الأخلاقي. ليس فقدان البصر الذي يمنع الإنسان من رؤية العالم.

بل فقدان البصر الذي يمنعه من رؤية نفسه.

ذلك النوع من العمى الذي لا يجعل الإنسان يرى أخطائه كما هي. ولا يرى دوافعه الحقيقية.

ولا يرى المسافة التي تفصل بين ما يفعله وما يقنع نفسه أنه يفعله.

وهذا النوع من العمى لا يحدث فجأة. بل يتكون ببطء شديد.

كقطرة ماء تسقط فوق حجر.

لا تترك أثرًا في اليوم الأول. ولا في الشهر الأول.

لكنها بعد سنوات تصنع فجوة كاملة.

في البداية كان الإنسان يعرف أنه يخطئ. ثم بدأ يبرر.

ثم اعتاد التبرير.

ثم نسي أصلًا أنه كان تبريرًا. وهنا تحدث النقلة الأخطر.

حين تتحول الرواية التي اخترعها العقل إلى حقيقة لا تقبل النقاش.

فيصبح أي اعتراض عليها هجومًا شخصيًا. وأي نقد لها ظلمًا.

وأي محاولة لمواجهتها سوء فهم.

هناك زوجة كذبت سنوات طويلة. ثم أصبحت مقتنعة أن المشكلة ليست في كذبها.

بل في الأشخاص الذين اكتشفوه.

وفي الزوج الذي لم يفهمها. إلا الكذب نفسه.

لقد اختفى الفعل من القصة.

وبقيت الأعداء فقط. وهذه علامة خطيرة.

فعندما يختفي الخطأ من الرواية التي نحكيها لأنفسنا، يصبح إصلاحه شبه مستحيل.

وهناك زوج أهمل زوجته سنوات طويلة. ثم أقنع نفسه أن المشكلة كلها في توقعاتها.

وفي حساسيتها.

وفي عدم تقديرها لما يفعله. لقد أصبح يرى نفسه ضحية رغم أنه كان جزءًا من المشكلة.

وربما جزءًا كبيرًا منها.

لكن الإنسان عندما يعتاد النظر إلى نفسه من زاوية واحدة، يصبح من الصعب عليه أن يرى أي زاوية أخرى.

وهناك ابن أو ابنة يجرحان والديهما باستمرار. ثم يصبحان مقتنعين أن كل ما يفعلاه مبرر بالكامل.

وأن الماضي يمنحهما الحق في أي رد فعل.

وأن الألم الذي عاشاه يلغي مسؤوليتهما عن الألم الذي يسببانه الآن. وهكذا يتحول الجرح من تفسير إلى تصريح.

ومن سبب إلى عذر دائم.

ومن قصة إلى هوية.

لكن الأخطر من هؤلاء جميعًا هو الإنسان الذي لم يعد يشك في نفسه أبدًا. الإنسان الذي يملك إجابة جاهزة لكل سؤال.

وعذرًا جاهزًا لكل خطأ.

وتفسيرًا جاهزًا لكل تصرف. ذلك الإنسان الذي لا يتوقف أبدًا ليقول:

"ربما كنت مخطئًا".

لأن هذه الجملة البسيطة هي بداية كل مراجعة حقيقية. وبداية كل نضج.

وبداية كل تغيير.

تأمل أكثر الناس حكمة الذين عرفتهم في حياتك. غالبًا لم يكونوا أكثر الناس ثقة بأنفسهم.
بل أكثرهم قدرة على مراجعة أنفسهم.
وأكثرهم استعدادًا للاعتراف بالخطأ. وأكثرهم وعيًا بأن رؤيتهم للعالم ليست الرؤية الوحيدة الممكنة.
أما أكثر الناس خطرًا فغالبًا ليسوا أولئك الذين يعترفون بأخطائهم.
بل أولئك الذين فقدوا القدرة على رؤيتها أصلًا.

ولهذا فإن الخير الحقيقي لا يعني أن الإنسان لا يخطئ. فلا أحد يعيش دون أخطاء.
ولا أحد ينجو من التناقضات.
ولا أحد يبقى دائمًا على صواب. الخير الحقيقي ربما يبدأ من مكان آخر.
من القدرة على الوقوف أمام النفس دون محامٍ يدافع عنها.
ودون قاضٍ يجاملها. ودون قصة جاهزة تبرر كل شيء.
الخير يبدأ عندما يملك الإنسان الشجاعة لينظر إلى نفسه كما ينظر إلى الآخرين.
بالمعيار نفسه. وبالصدق نفسه.
وبالقسوة العادلة نفسها.

وفي نهاية هذا الفصل لا يبقى السؤال: هل تكذب على نفسك؟
لأن الإجابة غالبًا نعم.
بدرجات مختلفة. وفي مواقف مختلفة.
فهذا جزء من الطبيعة البشرية.
السؤال الحقيقي هو: إلى أي مدى أنت مستعد للتخلي عن الكذبة عندما تكتشفها؟
إلى أي مدى أنت مستعد لمواجهة الصورة التي بنيتها عن نفسك؟
إلى أي مدى تستطيع الاعتراف بأنك لست استثناء؟ لأن اللحظة التي يقتنع فيها الإنسان أنه استثناء...
هي اللحظة التي تبدأ فيها الكذبة الأولى.

أما اللحظة التي يدرك فيها أنه يشبه بقية البشر أكثر مما يظن... فهي بداية الحكمة.
وبداية الصدق.

وبداية الرحلة الحقيقية نحو معرفة النفس. ومن هنا يظهر سؤال جديد.

سؤال قد يكون أكثر إزعاجًا من كل ما سبقه:

إذا كنا جميعًا نرى أنفسنا من الداخل، ونرى الآخرين من الخارج... فكيف نحكم عليهم أصلًا؟

وكيف يمكن أن نفهم أفعال البشر دون أن نعيش ظروفهم؟

وهل كنا سنصبح مختلفين حقًا لو عشنا حياتهم؟ أم أننا كنا سنفعل الشيء نفسه؟

وهذا هو السؤال الذي سيقودنا إلى الفصل الثالث:

لو كنت مكانه.

الفصل الثالث

لو كنت مكانه؟

كلنا أبطال قصصنا الخاصة



الفصل الثالث

لو كنت مكانه؟

هناك سؤال يزعج الإنسان أكثر مما يحب أن يعترف. سؤال بسيط في شكله.

لكنه قادر على هدم كثير من الأحكام السريعة التي نبنيناها عن الآخرين.

السؤال هو: ماذا لو كنت مكانه؟

ليس مكانه لدقيقة.

ولا لساعات قليلة. بل مكانه حقًا.

هل كنت سأصبح مختلفًا فعليًا؟

أم أنني كنت سأسير في الطريق ذاته؟

نحن نحب أن نعتقد أننا أفضل من الآخرين. وأنها كنا سنختار الطريق الصحيح دائمًا.

وأنا لو كنا مكان السارق لما سرقنا.

ولو كنا مكان الخائن لما خنا. ولو كنا مكان الظالم لما ظلمنا.

لكن هذه الثقة المفرطة غالبًا ما تأتي من شيء واحد.

أننا لم نعش حياتهم. نحن نحاكم النتائج.

ولا نعيش الرحلة التي قادت إليها.

نرى النهاية. ولا نرى الطريق.

عندما نقرأ عن مجرم في صحيفة، تكون القصة قصيرة جدًا. عدة سطور.

اسم.

وصورة. وجريمة.

لكن حياة ذلك الإنسان لم تكن عدة سطور.

كانت سنوات طويلة. طفولة كاملة.

وتجارب متراكمة.

وخسارات. وأخطاء صغيرة تراكمت فوق بعضها حتى وصلت إلى النهاية التي نراها.

وهذا لا يعني أنه بريء.

ولا يعني أن الجريمة أصبحت مقبولة. لكنه يعني شيئاً آخر مهماً جداً.
أن فهم الإنسان أصعب بكثير من إصدار حكم عليه.

هناك أب قاسٍ يخشاه أبنائه. وحين تنظر إليه من الخارج قد تراه شخصاً مؤذياً فقط.
لكن ماذا لو عرفت أنه نشأ في بيت لم يسمع فيه كلمة حنان واحدة؟
وأن والده كان أكثر قسوة منه؟ وأن الضرب كان اللغة الوحيدة التي عرفها في طفولته؟
هل يصبح ما يفعله صحيحاً؟
لا. لكنك تبدأ بفهمه.
وهناك فرق كبير بين الفهم والتبرير.
الفهم لا يمحو المسؤولية. لكنه يكشف الصورة كاملة.

وهناك زوجة تكذب وتخفي الأموال وتبني حياة كاملة من الأسرار. ومن السهل أن نصفها بالمخادعة.
لكن ماذا لو عرفت أنها نشأت وهي تشعر أن الأمان يمكن أن يختفي في أي لحظة؟
وأنها رأت أمها تُترك دون حماية؟ وأن الخوف من المستقبل ظل يطاردها سنوات طويلة؟
هل يصبح الكذب فضيلة؟
بالطبع لا. لكننا نبدأ في رؤية الإنسان خلف الفعل.
وهذا شيء مختلف تماماً.

وهناك ابن عاق. يرفع صوته على والديه.
ويتحدث إليهما بفظاظة.
ويتجاهل مشاعرهما. لكن ماذا لو كان قد عاش سنوات يشعر أنه غير مسموع؟
أو غير مفهوم؟
أو غير محبوب بالطريقة التي كان يحتاجها؟ هل يصبح العقوق مقبولاً؟
لا.
لكنك تبدأ في فهم الطريق الذي أوصله إليه.

ولهذا فإن أحد أكبر أخطاء البشر أنهم يخلطون بين الفهم والتبرير. فبمجرد أن نحاول فهم شخص ما، يظن البعض أننا ندافع عنه.

وبمجرد أن نشرح أسبابه، يعتقد البعض أننا نعفيه من المسؤولية.

لكن الحقيقة ليست كذلك. فهم السبب لا يلغي الخطأ.

ومعرفة الجرح لا تمحو الجريمة.

ورؤية المعاناة لا تحول الظلم إلى عدالة.

إذا سرق إنسان بسبب الفقر، فالفقر يفسر السرقة. لكنه لا يجعلها صحيحة.

وإذا خان إنسان بسبب الإهمال، فالإهمال يفسر الخيانة.

لكنه لا يجعلها وفاءً. وإذا قسا أب بسبب طفولته القاسية، فطفولته تفسر سلوكه.

لكنها لا تمحو أثره في أبنائه.

وهنا تظهر واحدة من أهم الحقائق في هذا الكتاب: الظروف تفسر السلوك.

لكنها لا تلغي الاختيار.

فالإنسان ليس ضحية كاملة. وليس حرًا بالكامل.

إنه شيء بين الاثنين.

شيء أكثر تعقيدًا مما نحب أن نعترف.

ولهذا فإن السؤال: "لو كنت مكانه؟"

ليس سؤالاً يهدف إلى تبرئة الناس.

بل إلى كسر الغرور الأخلاقي. ذلك الغرور الذي يجعل الإنسان مقتنعًا أنه أفضل من الجميع.

وأنه كان سيتصرف دائمًا بطريقة أكثر حكمة.

وأكثر أخلاقية. وأكثر عدلاً.

الحقيقة أن أحدًا لا يعرف ذلك.

لأن أحدًا لم يعيش حياة شخص آخر بالكامل.

وربما لهذا السبب كان أكثر الناس حكمة أقلهم إصدارًا للأحكام. ليس لأنهم لا يميزون بين الصواب والخطأ.

بل لأنهم يعرفون كم أن النفس البشرية معقدة.

وكم أن الإنسان يمكن أن يتغير لو تغيرت ظروفه. وكم أن الخط الفاصل بيننا وبين الآخرين أرق مما نتخيل.

فالفرق بين إنسان نحترمه وإنسان ندينه قد لا يكون دائمًا في الطبيعة.

بل أحيانًا في الطريق الذي سار فيه كل منهما. وفي الظروف التي شكلته.

وفي الخيارات التي واجهها.

وفي اللحظات التي لم نكن موجودين لنراها.

لكن إذا كانت الظروف تملك كل هذا التأثير... فلماذا يخرج شخصان من البيئة نفسها بنتائج مختلفة تمامًا؟

لماذا يتحول أحدهما إلى إنسان أكثر رحمة؟

بينما يتحول الآخر إلى إنسان أكثر قسوة؟ ولماذا يستطيع بعض البشر كسر السلسلة...

بينما يكررها آخرون جيلًا بعد جيل؟

هنا يبدأ السؤال الأصعب.

الظروف ليست كل شيء

من السهل أن ننسب كل شيء إلى الظروف. فهي إجابة مريحة.

وبسيطة.

وتمنحنا تفسيرًا جاهزًا للكثير من الأشياء. الأب القاسي؟

طفولة قاسية.

الزوجة المخادعة؟ خوف وانعدام أمان.

الابن العاق؟

جراح قديمة. السارق؟

فقر وحرمان.

السياسي الفاسد؟ بيئة فاسدة.

قائد الحرب؟

تاريخ طويل من الصراعات. كل ذلك قد يكون صحيحًا.
لكن لو كانت الظروف هي كل شيء، لكان الناس الذين عاشوا الظروف نفسها قد انتهوا إلى النتيجة نفسها.
والحقيقة أنهم لا يفعلون.

هناك طفلان يعيشان في البيت نفسه. ويتعرضان للتربية نفسها.
ويشاهدان الأحداث نفسها.
فيصبح أحدهما أكثر رحمة. ويصبح الآخر أكثر قسوة.
يتعرضان للألم نفسه تقريبًا.
لكن أحدهما يقرر ألا ينقله إلى غيره. بينما يحوله الآخر إلى أسلوب حياة.
فما الذي حدث؟
لو كانت الظروف وحدها هي المسؤولة، لكان الطريق واحدًا. لكن الطريق لم يكن واحدًا.
وهذا يعني أن هناك شيئًا آخر.
شيئًا يتعلق بالاختيار.

قد يتعرض إنسان للخيانة. فيقرر أن يكون أكثر صدقًا.
ويتعرض آخر للخيانة نفسها.
فيقرر ألا يثق بأحد وأن يخدع قبل أن يُخدع. الحدث واحد.
لكن النتيجة مختلفة.
وقد يعيش شخصان الفقر نفسه. فيخرج أحدهما أكثر تعاطفًا مع المحتاجين.
ويخرج الآخر مقتنعًا أن العالم لا يفهم إلا القوة والمصلحة.
ومرة أخرى يكون الحدث واحدًا. لكن الطريقين مختلفان.

ولهذا فإن الظروف تشبه الريح. قد تدفع السفينة.
لكنها لا تحدد وجهتها بالكامل.

هناك شيء آخر. شيء يملكه الإنسان.

قد يكون ضعيفاً أحياناً.

وقد يكون محدوداً. لكنه موجود.

إنه القدرة على الاختيار.

وهذه الفكرة مزعجة لكثير من الناس. لأنها تسحب منهم الراحة التي تمنحها كلمة "الظروف".

فإذا كانت الظروف هي السبب الوحيد، فإن المسؤولية تختفي تقريباً.

لكن إذا كان للإنسان دور في اختياراته، فإن جزءاً من المسؤولية يعود إليه. حتى لو كانت الظروف صعبة.

وحتى لو كانت الحياة غير عادلة.

وحتى لو كانت الجراح حقيقية.

وهنا تكمن المأساة والجمال معاً. فالألم الذي تعرضت له ليس خطأك دائماً.

لكن ما تفعله بهذا الألم يصبح مسؤوليتك مع الوقت.

قد لا تكون مسؤولاً عن الجرح. لكنك تصبح مسؤولاً عما تفعله به.

هل تحوله إلى رحمة؟

أم تحوله إلى قسوة؟ هل تجعله سبباً لفهم الآخرين؟

أم تجعله سلاحاً ضدهم؟

الأب الذي تعرض للقسوة في طفولته يقف أمام مفترق طرق. يمكنه أن يقول:

"لقد فعلوا بي ذلك، ولذلك سأفعله أنا أيضاً".

ويمكنه أن يقول: "لقد عرفت كيف يبدو الألم، ولذلك لن أنقله إلى أبنائي."

الجرح نفسه.

لكن القرار مختلف.

والزوجة التي عاشت الخوف نفسه تقف أمام الخيار ذاته. يمكنها أن تجعل الخوف سببًا دائمًا للكذب والخداع.

ويمكنها أن تواجهه بطريقة أخرى.

الزوج المهمل أيضًا. والابن العاق أيضًا.

والسياسي الفاسد أيضًا.

الجميع يملكون أسبابًا. لكن ليس الجميع يتخذون القرار نفسه.

ولهذا فإن أخطر كذبة بعد "أنا استثناء" هي: "لم يكن لدي خيار."

لأن الإنسان في كثير من الأحيان لا يكون بلا خيارات.

بل يكون أمام خيارات صعبة. وفرق كبير بين الأمرين.

فالإنسان يحب أن يقنع نفسه أنه كان مجبرًا.

لأن الإيجار يخفف المسؤولية. لكن الحقيقة أن كثيرًا من البشر كانوا يملكون خيارات.

صعبة.

ومؤلمة. ومكلفة.

لكنها كانت موجودة.

ولهذا لا يمكن أن نفهم الإنسان دون فهم ظروفه. لكن لا يمكن أيضًا أن نختصره في ظروفه.

فهو ليس مجرد نتيجة لما حدث له.

وليس مجرد ضحية للماضي. وليس مجرد منتج لبيئته.

إنه أكثر تعقيدًا من ذلك.

إنه مزيج من الظروف والاختيارات. من الجراح والقرارات.

من الماضي والحاضر.

ومن الألم والطريقة التي تعامل بها مع ذلك الألم.

وهنا نصل إلى سؤال أكثر إزعاجًا. إذا كانت الظروف لا تصنع الإنسان بالكامل...

وإذا كان الاختيار موجودًا دائمًا بدرجة ما...

فلماذا نتعاطف مع أنفسنا أكثر مما نتعاطف مع الآخرين؟ لماذا نبحت عن ظروفنا عندما نحكم على أنفسنا...

لكننا نركز على أفعال الآخرين عندما نحكم عليهم؟

ولماذا يبدو عذرنا دائماً أكثر إقناعاً من أذارهم؟ هنا تبدأ واحدة من أكثر نقاط النفس البشرية إثارة للاهتمام.

لماذا نتعاطف مع أنفسنا أكثر من الآخرين؟

من أغرب الأمور في النفس البشرية أننا نستخدم ميزانين مختلفين تقريباً طوال حياتنا. ميزاناً لأنفسنا. وميزاناً للآخرين.

وعادة ما يكون الميزان الأول أكثر رحمة. وأكثر تفهماً.

وأكثر استعداداً للبحث عن الأعذار.

بينما يكون الثاني أكثر صرامة. وأقل صبراً.

وأسرع في إصدار الأحكام.

ولهذا السبب قد يفعل شخصان الشيء نفسه تماماً. لكننا نحكم على أحدهما بطريقة.

ونحكم على الآخر بطريقة مختلفة.

فإذا تأخر شخص عن موعد مهم معنا، قد نراه مستهتراً. أو غير مسؤول.

أو غير مهتم.

لكن إذا تأخرنا نحن، نتذكر الزحام. والظروف.

والضغوط.

وكل ما حدث لنا قبل الوصول. نحن نرى أفعال الآخرين.

لكننا نرى قصتنا نحن.

وهنا يبدأ الفرق.

عندما تكذب الزوجة على زوجها، فهي تعرف الخوف الذي سبق الكذبة. وتعرف القلق.

والحسابات التي دارت في رأسها.

أما زوجها فلا يرى شيئاً من ذلك. هو يرى النتيجة فقط.

يرى أنها كذبت.

ولهذا يكون حكمه مختلفاً. وفي المقابل هي لا ترى الكذبة كما يراها هو.
بل ترى الطريق الطويل الذي أوصلها إليها.
وهكذا يبتعد الطرفان عن بعضهما أكثر فأكثر. لأن كل واحد منهما يعيش داخل قصة مختلفة.

والزوج المهمل يعيش الظاهرة نفسها. فهو يعرف حجم الضغط الذي يحمله.
ويعرف التعب الذي يشعر به.
ويعرف المسؤوليات التي تثقل كاهله. أما زوجته فلا تعيش كل ذلك بالطريقة نفسها.
هي تعيش الغياب.
وتعيش الوحدة. وتعيش الاحتياج غير الملبى.
ولهذا يبدو كل واحد منهما منطقياً في نظر نفسه.
وكل واحد يشعر أن الآخر لا يفهمه. وفي كثير من الأحيان يكون الاثنان على حق جزئياً.
والاثنان مخطئين جزئياً أيضاً.

والابن العاق يعرف ألمه أكثر مما يعرف ألم والديه. وهذا أمر طبيعي.
فالإنسان يشعر بجرحه مباشرة.
أما جراح الآخرين فيتخيلها فقط. هو يعرف كم مرة شعر بالغضب.
وكم مرة شعر بأنه غير مفهوم.
وكم مرة شعر بالظلم. لكن والديه يعرفان شيئاً آخر.
يعرفان الخوف.
والقلق. والليالي التي لم يناما فيها بسببه.
والأحلام التي حملها من أجله.
والمشكلة أن كل طرف يعيش عالمه الداخلي بوضوح شديد. بينما يعيش عالم الطرف الآخر بصورة
ضبابية.

ولهذا فإن الإنسان بطبيعته محامٍ ممتاز لنفسه. يعرف كيف يدافع عنها.
وكيف يشرح ظروفها.

وكيف يخفف من أخطائها. وعندما يتعلق الأمر بالآخرين يتحول بسهولة إلى قاضٍ.
يرى النتائج.

ويصدر الأحكام. ويعتقد أن الصورة واضحة.
مع أنها نادرًا ما تكون كذلك.

وهذا لا يحدث فقط داخل البيوت. بل في كل مكان.
فالموظف يبرر تقصيره بسبب الضغوط.
لكنه يغضب من تقصير زميله. والسائق يبرر أخطاءه بسبب الظروف.
لكنه يصف الآخرين بالمستهترين.
والسياسي يبرر أخطاء حزبه. بينما يرى أخطاء خصومه فضائح لا تغتفر.
والشعوب نفسها تفعل الأمر ذاته.
تسامح أخطاء من يشبهها. وتدين أخطاء من يختلف عنها.
وكأن الإنسان يبحث دائمًا عن طريقة تجعل نفسه في الجانب الأفضل من القصة.

ولهذا فإن أحد أصعب الأمور التي يمكن أن يفعلها الإنسان هو أن ينظر إلى نفسه بالطريقة التي ينظر
بها إلى الآخرين. أن يسأل نفسه:
لو أن شخصًا آخر فعل ما فعلته أنا، ماذا كنت سأقول عنه؟
لو كانت زوجة أخرى تخفي المال وتكذب بالطريقة نفسها، هل كنت سأدافع عنها؟ لو كان ابن آخر
يتحدث إلى والديه بالطريقة نفسها، هل كنت سأعتبره محققًا؟
لو كان زوج آخر يهمل زوجته بالطريقة نفسها، هل كنت سأراه مضحياً أم مقصراً؟
هذه الأسئلة مؤلمة. لأنها تزيل الامتياز الذي يمنحه الإنسان لنفسه.
وتجبره على استخدام الميزان نفسه.

وربما لهذا السبب كان الصدق مع النفس من أصعب أنواع الصدق. فالإنسان لا يحتاج إلى شجاعة كبيرة
ليكتشف أخطاء الآخرين.
لكنه يحتاج إلى شجاعة نادرة ليكتشف أخطاءه هو.
أن يرى نفسه خارج القصة التي كتبها. وخارج الأعذار التي اعتاد تكرارها.

وخارج الصورة التي أحبها لسنوات.

وهذا ما يجعل المراجعة الذاتية مؤلمة. لكنها ضرورية.

لأن الإنسان الذي لا يراجع نفسه باستمرار يبدأ تدريجيًا في تصديق الرواية الوحيدة التي يسمعها كل يوم...

روايته الخاصة.

لكن يبقى سؤال أكثر عمقًا. إذا كنا نرى أنفسنا بهذه الرحمة.

ونرى الآخرين بهذه الصرامة.

فكيف تتكون أحكامنا الأخلاقية أصلًا؟ وكيف يتحول إنسان عادي إلى شخص قادر على رؤية نفسه دائمًا على أنه الضحية أو البطل؟

ومتى يبدأ الخط الفاصل بين الفهم والتبرير في الاختفاء؟

هنا نقترّب من واحدة من أخطر الآليات النفسية التي يمتلكها الإنسان...

الضحية التي تسكن داخل كل إنسان

هناك شخصية خفية تعيش داخل معظم البشر. شخصية تظهر كلما أخطأنا.

وكلما واجهتنا حقيقة لا نحبها.

وكلما شعرنا أن صورتنا عن أنفسنا مهددة. هذه الشخصية هي الضحية.

وليس المقصود الضحية الحقيقية التي تعرضت للظلم فعلاً.

فمثل هذه الضحية موجودة ولا يمكن إنكارها. المقصود هو ذلك الجزء داخل الإنسان الذي يحب أن يرى نفسه متضررًا دائمًا.

حتى عندما يكون هو من تسبب في الضرر.

ذلك الجزء الذي يفسر كل ما يحدث حوله بطريقة تجعله أقل مسؤولية. وأقل لومًا.

وأقرب إلى البراءة.

فالإنسان حين يشعر بالذنب يبحث عقله بسرعة عن مخرج. وأسرع المخارج دائمًا هو أن يتحول من متهم إلى ضحية.

لأن الضحية لا تعتذر.

والضحية لا تُحاسب. والضحية لا تشعر أنها مطالبة بالمراجعة.
ولهذا يصبح لعب هذا الدور مريحًا للغاية.

هناك زوجة تخفي الأموال عن زوجها منذ سنوات. وتكذب كلما سألها.
وعندما تنكشف الحقيقة لا تبدأ بالحديث عما فعلته.
بل تبدأ بالحديث عما فعله هو. تتذكر كل تفصير.
وكل مشكلة.
وكل موقف أغضبها. "هل كان ما فعلته صحيحًا؟"
إلى:

"هل كان هو زوجًا جيدًا؟" ورغم أن السؤال الثاني قد يكون مهمًا.
إلا أنه لا يجيب عن السؤال الأول.
لكن العقل لا يهتم بذلك كثيرًا. ما يهمه هو تخفيف الشعور بالذنب.
وأفضل طريقة لذلك هي الانتقال من موقع المسؤول إلى موقع الضحية.

والزوج المهمل قد يفعل الأمر نفسه. حين تواجهه زوجته بسنوات من الإهمال.
لا يبدأ بسؤال نفسه إن كان قد أخطأ.
بل يبدأ بتعداد أعبائه. وضغوطه.
وكان الحديث لم يعد عن الإهمال أصلًا.
بل عن مقدار تعب. وهكذا يصبح هو الضحية.

والابن العاق يقع في الفخ نفسه. فحين يُسأل عن قسوته أو جفائه أو تجاهله لوالديه.
يعود مباشرة إلى الماضي.
إلى الأخطاء التي ارتكبوها. إلى المواقف التي جرحته.
إلى الأشياء التي حُرِم منها.
وربما تكون بعض هذه الجراح حقيقية فعلاً. لكن شيئًا غريبًا يحدث.

فبذل أن تفسر الماضي أفعاله...

يبدأ الماضي في تبريرها. وبدل أن يصبح الألم جزءاً من الفهم...

يتحول إلى تصريح مفتوح بعدم تحمل المسؤولية.

وكان الإنسان يقول: "لأنني تألمت... يحق لي أن أفعل ما أشاء."

وهنا تكمن الخطورة. لأن الألم الحقيقي لا يجعل الإنسان دائماً على حق.

والجرح الحقيقي لا يحول كل رد فعل إلى فضيلة.

والظلم الذي تعرض له الإنسان لا يمنحه حصانة أخلاقية مدى الحياة. لكن العقل يحب أن يصدق ذلك.

لأنه يجعله يشعر ببراءة أكبر.

ولهذا فإن بعض الناس يعيشون سنوات طويلة داخل دور الضحية. حتى عندما تتغير الظروف.

وحتى عندما يصبحون هم مصدر الأذى.

يستمررون في رؤية أنفسهم بالطريقة نفسها. لأن هذه الرؤية مريحة.

فهي تعفيهم من مواجهة أنفسهم.

وتعفيهم من الاعتذار. وتعفيهم من الاعتراف بالحقيقة.

وهذا لا يحدث فقط على مستوى الأفراد. بل على مستوى الجماعات أيضاً.

فقد ترى حزباً سياسياً فاسداً يعتقد أنه ضحية المؤامرات.

وترى مسؤولاً فاشلاً يعتقد أن الجميع يحاربه. وترى قائد حرب تسبب في مآسٍ لا حصر لها ويعتقد أنه

ضحية للظروف الدولية.

كل واحد منهم يجد قصة تضعه في موقع المظلوم.

حتى عندما يكون ملايين البشر قد دفعوا ثمن قراراته.

والأمر نفسه يحدث مع المجرمين أحياناً. فكثير منهم لا يبدأ حديثه بما فعله.

بل بما حدث له.

وبالظلم الذي تعرض له. وقد تكون بعض تلك القصص حقيقية.

لكنها لا تلغي حقيقة أخرى.

أن هناك لحظة اتخذ فيها قرارًا. وأن هناك أشخاصًا تأذوا بسبب ذلك القرار. لكن الحديث عن الضحية أسهل من الحديث عن المسؤولية.

ولهذا فإن واحدة من أهم علامات النضج النفسي ليست أن يتوقف الإنسان عن رؤية الجراح التي تعرض لها. بل أن يتوقف عن استخدامها كعذر دائم. أن يعترف بألمه دون أن يجعله رخصة لإيذاء الآخرين. أن يفهم ماضيه دون أن يسمح له بالسيطرة على حاضره. أن يرى نفسه ضحية حين يكون ضحية فعلاً. ومسؤولًا حين يكون مسؤولًا فعلاً. دون خلط بين الاثنين.

فالإنسان الناضج لا يقول: "أنا لم أتألم."

بل يقول:

"لقد تألمت... لكن ذلك لا يعطيني من مسؤوليتي." ولا يقول:

"لم أتعرض للظلم."

بل يقول: "تعرضت للظلم... لكن ذلك لا يمنحني الحق في ظلم غيري."

وهنا يبدأ الفرق الحقيقي بين الفهم والتبرير.

بين الوعي والهروب. بين مواجهة النفس والاختباء منها.

لكن يبقى سؤال أخير. إذا كان الإنسان يملك هذه القدرة الهائلة على تبرير نفسه...

وعلى رؤية نفسه ضحية...

وعلى إعادة كتابة قصته باستمرار... فهل توجد طريقة لاكتشاف الحقيقة؟

هل توجد مرآة أكثر صدقًا من المرآة التي ننظر فيها كل يوم؟

وهل يستطيع الإنسان أن يعرف فعلاً متى يكون مخطئًا؟ هذا السؤال يقودنا إلى الجزء الأهم في هذا الفصل...

اختبار "لو كنت مكانه"

من السهل أن تكون أخلاقياً عندما لا تدفع الثمن. ومن السهل أن تبدو شجاعاً عندما لا تواجه الخوف.
ومن السهل أن تصدر الأحكام عندما لا تعيش الظروف نفسها.
ولهذا فإن أحد أكثر الأسئلة صدقاً التي يمكن أن يطرحها الإنسان على نفسه هو: ماذا لو كنت مكانه؟
ليس مكانه من الخارج.
بل مكانه بالكامل. بكل ما عاشه.
وكل ما خسره.
وكل ما خاف منه. هل كنت سأفعل الشيء نفسه؟

هذا السؤال لا يهدف إلى تبرئة الناس. بل إلى كسر غرورنا الأخلاقي.
ذلك الغرور الذي يجعل الإنسان مقتنعاً أنه كان سيتخذ القرار الصحيح دائماً.
وأنه كان سيبقى نزيهاً في كل الظروف. وعادلاً في كل المواقف.
وشريعاً في كل الاختبارات.
الحقيقة أن أحداً لا يعرف ذلك. لأن أحداً لم يعيش حياة شخص آخر بالكامل.

عندما ترى سارقاً قد تقول: "أنا لم أكن لأفعل ذلك أبداً."
وربما تكون صادقاً.

لكن هل عشت فقره؟ هل عشت خوفه؟
هل عشت سنوات الحرمان التي عاشها؟
هل عشت الإحباط نفسه؟ هل وقفت أمام الخيارات نفسها؟
ربما نعم.

وربما لا. ولهذا فإن الحكم يصبح أكثر تعقيداً مما يبدو.

وعندما ترى ابناً عاقاً قد تقول: "كيف يستطيع أن يعامل والديه بهذه الطريقة؟"

لكن هل عشت طفولته؟
هل عرفت ما الذي حدث خلف الأبواب المغلقة؟ هل عرفت الكلمات التي سمعها؟

والجراح التي حملها؟
والأشياء التي لم يخبر بها أحدًا؟ مرة أخرى...
هذا لا يبرر العقوق.
لكنه يجعل الصورة أكبر من مجرد حكم سريع.

وعندما ترى أبًا قاسيًا قد تقول: "كيف يفعل ذلك بأبنائه؟"
لكن هل عرفت كيف تربي؟
هل عرفت ما الذي كان يعتقد أنه طبيعي؟ هل عرفت ماذا تعلم عن الحب؟
وعن التربية؟
وعن الرجولة؟ ربما عاش عمره كله دون أن يرى نموذجًا مختلفًا.
وربما كان يكرر ما تعرض له دون أن يشعر.
وهذا لا يجعله بريئًا. لكنه يجعل فهمه أكثر عمقًا.

فالهدف من هذا السؤال ليس إزالة المسؤولية. بل إزالة الغرور.
أن يتذكر الإنسان أنه ليس مختلفًا عن بقية البشر بالدرجة التي يتخيلها.
وأنه لو وُضع في ظروف أخرى ربما كان سيصبح شخصًا آخر. أفضل أحيانًا.
وأسوأ أحيانًا أخرى.

ولهذا فإن أكثر الناس حكمة ليسوا الذين يقولون: "أنا أفضل من الجميع."
بل الذين يقولون:
"لا أعرف ماذا كنت سأصبح لو عشت حياتهم." هذه الجملة لا تجعل الإنسان ضعيفًا.
بل أكثر عدلًا.
وأكثر تواضعًا.

لكن هناك جانبًا آخر لهذا السؤال. جانب لا يتعلق بالآخرين.
بل يتعلق بك أنت.

لأن السؤال لا ينبغي أن يكون دائماً: "لو كنت مكانه؟"
بل أحياناً:

"لو كان هو مكاني؟" لو كان شخص آخر يعيش حياتك.
ويحمل ظروفك.

ويعيش قصتك. هل كان سيفعل ما فعلته أنت؟

أم كان سيختار طريقاً مختلفاً؟

هذا السؤال أكثر إزعاجاً. لأنه يعيد المسؤولية إليك.

ويمنعك من الاختباء خلف الظروف وحدها.

فالزوجة التي تكذب قد تقول: "أي امرأة في مكاني كانت ستفعل الشيء نفسه."
لكن هل هذا صحيح فعلاً؟

والزوج المهمل قد يقول: "أي رجل يحمل مسؤولياتي كان سيتصرف بالطريقة نفسها."
لكن هل هذا مؤكد؟

والابن العاق قد يقول: "أي شخص عاش ما عشته كان سيصبح مثلي."
لكن هل هذا واقع أم مجرد قصة مريحة؟

هنا يبدأ العقل في التردد. لأن الحقيقة ليست واضحة كما كان يعتقد.

وفي تلك اللحظة بالتحديد يحدث شيء مهم. يبدأ الإنسان في رؤية نفسه كجزء من البشر.
لا كاستثناء منهم.

ولا كضحية دائمة. إنسان يحمل ظروفًا حقيقية.
وجراحًا حقيقية.

وأسبابًا حقيقية. لكنه يملك أيضًا مسؤولية حقيقية.
وهذا هو التوازن الذي يضيع عند كثير من الناس.

إما أن يلوموا أنفسهم على كل شيء. أو يعفوا أنفسهم من كل شيء.
بينما الحقيقة غالبًا تقع في المنتصف.

ولهذا فإن السؤال: "لو كنت مكانه؟"

لا يقود إلى التبرير.

بل إلى التواضع. بل إلى فهمها بصورة أكثر عدلاً.

ولا يقود إلى إلغاء الأحكام الأخلاقية.

بل إلى جعلها أكثر إنسانية. وأقل غروراً.

وفي نهاية الأمر يبقى شيء واحد مؤكداً. لن تعرف أبداً بشكل كامل ماذا كنت ستفعل لو عشت حياة شخص آخر.

لكن مجرد إدراكك لهذه الحقيقة يجعلك أقل قسوة في أحكامك.

وأكثر حذراً في يقينك. وأقل استعداداً لوضع نفسك دائماً في الجانب المضيء من القصة.

وهذا بحد ذاته خطوة كبيرة نحو الصدق.

الصدق مع الآخرين. والأهم...

الصدق مع النفس.

لكن إذا كانت الظروف لا تبرر الخطأ... وإذا كان فهم الإنسان لا يعني تبرئته...

فكيف تتحول بعض الأخطاء الفردية إلى أشياء يقبلها مجتمع كامل؟

كيف يمكن لآلاف البشر أن يقتنعوا أن شيئاً ظالماً هو أمر طبيعي؟ وكيف يتحول الاستغلال أحياناً إلى قانون؟

والفساد إلى نظام؟

والظلم إلى شيء يحظى بالاحترام؟ هنا تبدأ قصة مختلفة.

قصة لا تتعلق بالفرد وحده.

بل بالمجتمع كله. وهذا ما يقودنا إلى الفصل الرابع:

لصوص محترمون.

الفصل الرابع

لصوص محترمون

السرقة التي نحب أن نراها

كلنا أبطال قصصنا الخاصة



الفصل الرابع

لصوص محترمون

السرقعة التي نحب أن نراها

حين يسمع الناس كلمة "سرقعة"، تتشكل في أذهانهم صورة محددة جدًا. رجل يمد يده إلى ما لا يملكه. حقيبة تُنتزع.

باب يُكسر. مال يُؤخذ.

ثم ينتهي الأمر.

الفاعل واضح. والضحية واضحة.

والجريمة واضحة.

ولهذا يشعر الناس براحة غريبة أمام هذا النوع من الشر. راحة لا علاقة لها بالفعل نفسه. بل بوضوحه.

فالعقل يحب الأشياء الواضحة. ويحب الحدود الواضحة.

ويحب عالمًا يعرف فيه بسهولة من هو المخطئ ومن هو المظلوم.

لكن الحياة لا تمنحنا هذه الراحة كثيرًا. لأن أكثر أنواع الظلم انتشارًا ليست تلك التي تظهر في الشوارع.

بل تلك التي تختبئ داخل الأشياء العادية.

داخل القرارات اليومية. داخل العلاقات.

داخل المؤسسات.

داخل البيوت. وفي كثير من الأحيان لا تبدو سرقة أصلًا.

هناك موظف يعمل سنوات طويلة. يصل قبل الجميع.

ويغادر بعد الجميع.

يتحمل الضغوط. ويتعلم.

ويتطور.

ويؤجل أشياء كثيرة في حياته لأنه يؤمن أن جهده سيكافأ يومًا. ثم يأتي يوم الترقية.

فتذهب إلى شخص آخر.

ليس لأنه أفضل. ولا لأنه أكثر كفاءة.
بل لأنه يعرف الشخص المناسب.
في تلك اللحظة لم يُسرق مال. ولم تُكسر خزانة.
لكن شيئاً سُرق.
سُرق جهد. وسُرقَت فرصة.
وسُرقَت سنوات كاملة من الانتظار.
ومع ذلك لا يقف أحد ليقول: لقد حدثت سرقة.

لأن الناس لا يسمون الأشياء بحسب حقيقتها دائماً. بل بحسب شكلها.
وحيث ترتدي السرقة ملابس محترمة...
يتردد الكثيرون في تسميتها باسمها الحقيقي.

الأمر نفسه يحدث داخل البيوت. هناك أب يعطي أحد أبنائه كل شيء.
ويحرم البقية.
ليس لأن ذلك الابن أفضل. بل لأنه الأقرب إلى قلبه.
أو لأنه يشبهه أكثر.
سنوات طويلة من التمييز. وسنوات طويلة من الانحياز.
وسنوات طويلة من الفرص غير المتساوية.
لكن قليلين من يرون ما يحدث. مع أن شيئاً يُسرق كل يوم.
تُسرق العدالة.
ويُسرق الشعور بالمساواة. ويُسرق جزء من الثقة داخل الأسرة.

وهناك أم تعرف أنها قدوة لأبنائها. لكنها تكذب أمامهم.
وتطلب منهم الصدق.
وتشتتم الناس أمامهم. ثم تتساءل بعد سنوات لماذا لم يصبحوا كما كانت تريد.

هي لا تسرق مالا.

لكنها تسرق شيئاً آخر. تسرق وضوح المعايير.

وتسرق من أبنائها القدرة على التمييز بين ما يُقال وما يُفعل.

وهناك زوج لا يخون زوجته. ولا يسرق مالها.

لكنه يسرق شيئاً لا يقل قيمة.

يسرق اهتمامها. يسرق إحساسها بأنها مهمة.

يسرق سنوات من عمرها وهي تنتظر كلمة أو نظرة أو مشاركة لا تأتي.

وحين يُواجه بذلك يقول: "أنا أوفر كل شيء."

وكان الإنسان يعيش بالمال وحده.

وكان الحضور الجسدي يعوض الغياب العاطفي.

وهناك زوجة تخفي الحقائق. وتبني جداراً من الأسرار.

وتدير حياة كاملة لا يعرف عنها زوجها شيئاً.

وحين تتكشف الأمور لا ترى نفسها سارقة. مع أنها سرقت شيئاً لا يُشترى بالمال.

سرقت الثقة.

والثقة حين تُسرق لا يستطيع أحد أن يعيدها كما كانت.

ولهذا فإن أخطر أنواع السرقة ليست دائماً تلك التي تأخذ شيئاً من يدك. بل التي تأخذ شيئاً من حياتك.

شيئاً لا تكتشف اختفائه إلا بعد سنوات.

فرصة. أمان.

ثقة.

كرامة. إحساس بالعدل.

إحساس بالقيمة.

هذه الأشياء تُسرق كل يوم. لكن لأن القانون لا يسجلها في دفاتره بسهولة...

يتعامل معها الناس وكأنها لم تحدث.

ولهذا فإن الإنسان لا يكره كل أنواع السرقة بالقدر نفسه. هو يكره السرقة التي تعكس صورته عن العالم. أما السرقة التي اعتاد رؤيتها فقد يتعايش معها. وقد يبررها. وقد يدافع عنها. وأحياناً قد يشارك فيها دون أن يشعر. وهنا تبدأ المشكلة الحقيقية. فليست كل سرقة تُدان. وليست كل جريمة تُرفض. بل إن بعض أشكال الظلم تحصل على الاحترام. وكلما ازداد صاحبها قوة... ازداد عدد الذين يبحثون لها عن أعذار.

عندما يرتدي الظلم بدلة أنيقة

من السهل أن يرفض الناس الظلم عندما يكون فظاً. عندما يصرخ في وجوههم. وعندما يظهر بأسنانه. وعندما لا يحاول إخفاء نفسه. لكن الظلم نادراً ما يكون بهذه السذاجة. فالظلم الحقيقي يتعلم بسرعة. ويتطور. ويغير مظهره. وكيف يجعل ضحاياه أنفسهم يشكون في أنه ظلم أصلاً.

حين يأخذ لص محفظة رجل في الشارع، لا يحتاج أحد إلى شرح ما حدث. لكن حين يستخدم صاحب سلطة نفوذه للحصول على ما لا يستحق، يصبح الأمر أكثر تعقيداً.

فجأة تظهر الكلمات الجميلة.

الخبرة. العلاقات.

الثقة.

المصلحة. التقدير.

وتختفي الكلمة الحقيقية.

كم من شخص حصل على فرصة لم يستحقها؟ وكم من شخص خسر فرصة كان يستحقها؟
ليس لأن الأول أفضل.
بل لأنه أقرب. أو أقوى.
ومع ذلك نادرًا ما يسمي الناس ذلك سرقة.
مع أن النتيجة واحدة. شخص أخذ ما ليس من حقه.
وشخص حُرِمَ مما هو حق له.
لكن اختلاف الملابس جعل الحكم مختلفًا.

وهذا ما يفعله النفوذ دائمًا. لا يغير الفعل.
فالفعل الذي يبدو قبيحًا عندما يصدر من إنسان بسيط، قد يبدو عاديًا عندما يصدر من إنسان مهم.
والتصرف الذي نصفه بالفساد عند شخص، قد نصفه بالحكمة عند شخص آخر. ليس لأن الحقيقة
تغيرت.
بل لأننا نحن من تغير.

وهنا يظهر أحد أكثر العيوب البشرية انتشارًا. نحن لا نحترم العدالة دائمًا.
بل نحترم القوة أكثر مما نعترف.
ولهذا نجد أنفسنا أحيانًا أكثر تسامحًا مع أخطاء الأقوياء. وأكثر قسوة مع أخطاء الضعفاء.
فالإنسان البسيط يُحاسِبُ على كل شيء.
أما صاحب النفوذ فيحصل دائمًا على فرصة إضافية. وعذر إضافي.
وتفسير إضافي.

والغريب أن الأمر لا يقتصر على السياسة أو المال. بل يحدث داخل العلاقات أيضًا.
هناك أب يفرض سيطرته على أبنائه بحجة الخبرة.
ويقرر عنهم. ويختار لهم.

لكنه لا يرى نفسه متحكمًا.

بل أبًا يعرف مصلحتهم. وكلما قاومه أحد، اعتبر ذلك عقوفاً.

وكلما اعترض أحد، اعتبر ذلك تمرّدًا.

وهكذا يتحول النفوذ الأبوي أحيانًا إلى سلطة لا تُراجع. ليس لأنها عادلة.

بل لأنها قوية.

وهناك زوج يستخدم المال سلاحًا. لا يضرب.

لكنه يجعل كل شيء يمر عبره.

كل قرار. كل حاجة.

كل تفصيل.

ثم يقنع نفسه أنه يقوم بواجبه. بينما الحقيقة أنه يستخدم ما يملك ليحصل على ما يريد.

لكن لأن الأمر لا يبدو عنيقًا، لا يراه كثيرون ظلمًا.

مع أنه كذلك.

وهناك زوجة تستخدم شيئًا آخر. قد تستخدم المشاعر.

أو الذنب.

أو التلاعب. وتجعل الطرف الآخر يتحرك وفق ما تريد.

ثم تقول إنها لم تجبر أحدًا على شيء.

وهذا صحيح جزئيًا. لكن النفوذ لا يكون دائمًا بالقوة المباشرة.

أحيانًا يكون بالقدرة على التأثير.

وبالقدرة على دفع الآخرين نحو ما لا يريدون. ثم إقناعهم أنهم اختاروه بأنفسهم.

ولهذا فإن الظلم لا يحتاج دائمًا إلى قسوة. ولا يحتاج دائمًا إلى صوت مرتفع.

أحيانًا يكفي أن يملك صاحبه سلطة لا يملكها غيره.

ثم يستخدمها دون أن يشعر. أو يشعر ويتجاهل.

شخص يأخذ أكثر مما يستحق.

وشخص آخر يدفع الثمن.

لكن الأخطر من ذلك كله ليس وجود الظلم. بل اعتياد الناس عليه.

فكل ظلم يتكرر فترة طويلة يبدأ في الظهور كشيء طبيعي.

وكل استغلال يستمر سنوات يبدأ في الظهور كأنه جزء من النظام. وكل فساد يعيش طويلاً يبدأ في الظهور كأنه القاعدة.

وهنا لا يعود السؤال:

هل هذا ظلم؟ بل يصبح السؤال:

أليس هذا ما يحدث دائماً؟

وفي اللحظة التي يصل فيها الناس إلى هذا السؤال... يكون الظلم قد حقق أكبر انتصاراته.

لأنه لم يعد يحتاج إلى الدفاع عن نفسه.

بل أصبح جزءاً من الواقع الذي اعتاده الجميع.

لكن كيف يصل الناس إلى هذه المرحلة؟ كيف يصبح الظلم مألوفاً إلى هذا الحد؟

وكيف تتحول السرقة إلى شيء عادي؟

وكيف يعيش البشر وسط الاستغلال سنوات طويلة دون أن يسموه باسمه الحقيقي؟ هنا تبدأ السرقة التي لا يسميها أحد سرقة.

السرقة التي لا يسميها أحد سرقة

هناك نوع من السرقة لا يحتاج إلى لصوص. ولا يحتاج إلى أقفال مكسورة.

ولا يحتاج إلى مطاردة أو محاكم.

بل يحدث بهدوء شديد. إلى درجة أن الضحية نفسها قد لا تكتشفه إلا بعد سنوات.

وحين تكتشفه يكون الوقت قد تأخر.

هناك أشياء في الحياة أثمن من المال. وأثمن من الممتلكات.

وأثمن أحياناً من الأشياء التي يمكن تعويضها.

أشياء إذا ضاعت لا تعود كما كانت أبدًا. الثقة.
والكرامة.

والوقت. وحين تُسلب هذه الأشياء من إنسان، تحدث سرقة حقيقية.
حتى لو لم يُفقد يورو واحد من حسابه.

هناك أب يقضي سنوات في مقارنة أبنائه ببعضهم. واحد ذكي.
والآخر أقل.

في البداية تبدو مجرد كلمات. لكن الكلمات لا تبقى كلمات دائمًا.
فمع الوقت تبدأ بسرقة شيء مهم جدًا.
الثقة بالنفس. ويكبر الطفل وهو يشعر أن قيمته أقل.
وأن وجوده أقل أهمية.

وأن عليه أن يقضي عمره كله محاولاً إثبات أنه يستحق الحب. لقد حدثت سرقة.
لكن لا أحد كتب محضرًا بذلك.

وهناك أم تزرع الخوف بدل الطمأنينة. وتزرع الذنب بدل الحوار.
وتزرع القلق بدل الأمان.

ثم تتساءل لماذا أصبح أبنائها خائفين من الحياة. لماذا يشكون في أنفسهم.
ولماذا يحتاجون دائمًا إلى موافقة الآخرين.

لأن شيئاً سُرق منهم مبكرًا. سُرق الإحساس بالأمان الداخلي.
وهو من أثمن ما يمكن أن يملكه الإنسان.

وهناك زوج يقضي سنوات يعد زوجته بأشياء لا ينوي فعلها. ليس لأنه يريد إيذاءها بالضرورة.
بل لأنه اعتاد التأجيل.

واعتماد الوعود. واعتماد أن يجعل المستقبل يعالج ما لا يريد مواجهته في الحاضر.
كل سنة تمر.

ثم أخرى. ثم أخرى.

وفجأة تكتشف المرأة أن جزءًا من عمرها قد ضاع وهي تنتظر.

وتنتظر. وتنتظر.

لقد سُرقَت منها سنوات.

وسُرقَت منها احتمالات. وسُرقَت منها حياة كان يمكن أن تكون مختلفة.

لكن أحدًا لا يسمي ذلك سرقة.

وهناك زوجة تخفي الحقيقة عامًا بعد عام. وتترك شريكها يعيش داخل صورة غير حقيقية.

وحين يعرف الحقيقة أخيرًا لا يشعر فقط أنه تعرض للكذب.

بل يشعر أن شيئًا من حياته قد سُرق. سنوات عاشها وهو يصدق شيئًا لم يكن موجودًا أصلًا.

وسنوات بُنيت على أساس لم يكن حقيقيًا.

ولهذا يكون الألم أكبر من الكذبة نفسها. لأن ما سُرق ليس معلومة.

بل واقع كامل.

وفي العمل تحدث سرقات أكثر هدوءًا. هناك مدير ينسب نجاح فريقه إلى نفسه.

وحين يفشل العمل يلقي اللوم على الآخرين.

يحصل على التقدير. ويحصل على المكافآت.

ويحصل على الصورة الجميلة.

بينما الذين قاموا بالجهد الحقيقي يختفون في الخلفية. ما الذي حدث هنا؟

لقد سُرق الجهد.

وسُرق الاعتراف. وسُرقَت ثمرة العمل.

لكن لأن السرقة لم تكن مألًا مباشرًا، يمر الأمر كأنه طبيعي.

وفي المجتمعات أيضًا تحدث سرقات أكبر. حين يُحرم الناس من فرص عادلة.

أو من تعليم جيد.

أو من نظام منصف. فإن ما يُسرق ليس شيئًا صغيرًا.

بل يُسرق المستقبل نفسه.

ويُسرق حق الإنسان في أن يبدأ من نقطة عادلة. ومع ذلك قد يستمر كل شيء بصورة قانونية تمامًا.

وهنا تكمن المفارقة.

فالقانون أحيانًا يصف الإجراءات. لكنه لا يصف دائمًا العدالة.

ولهذا فإن بعض أكبر السرقات في التاريخ لم تكن سرقة أموال. بل سرقة فرص.

وسرقة حقوق.

لأن الناس اعتادوا النظر إلى اليد التي تأخذ المال. لكنهم أقل قدرة على رؤية اليد التي تأخذ الحياة نفسها قطعة قطعة.

وهنا تقترب من سؤال أكثر إزعاجًا. إذا كانت هذه الأشكال من الظلم والسرقة موجودة أمامنا طوال الوقت...

فلماذا لا نراها بوضوح؟

ولماذا نغضب من بعض المظالم أكثر من غيرها؟ ولماذا يصبح بعض الظلم مقبولا بل ومحترما أحيانًا؟

هنا تبدأ واحدة من أكثر الظواهر البشرية غرابة:

نحن لا نحكم على الظلم بمعيار واحد. بل بمعايير متعددة...

وغالبًا متناقضة.

لماذا نحترم بعض الظلم؟

لو كان البشر يحكمون على الأفعال بمعيار واحد، لكان العالم مختلفًا كثيرًا. لكان الظلم مرفوضًا دائمًا.

والاستغلال مرفوضًا دائمًا.

والكذب مرفوضًا دائمًا. بغض النظر عن صاحبه.

لكن ما يحدث في الواقع مختلف تمامًا.

فالناس لا يسألون دائمًا: "ماذا حدث؟"

بل يسألون غالبًا:

"من الذي فعله؟" وهنا يبدأ كل شيء في التغير.

حين يظلمك شخص لا تحبه، ترى الظلم بوضوح شديد. ترى كل تفاصيله.
وكل قسوته.

وكل آثاره. لكن عندما يصدر الفعل نفسه من شخص تحبه، يصبح الحكم أكثر تعقيدًا.
تبدأ الأعداء بالظهور.

ربما لم يقصد. ربما كان غاضبًا.

ربما أسيء فهمه.

ربما كانت هناك ظروف لا نعرفها. فجأة يصبح الظلم أقل وضوحًا.

ليس لأن الفعل تغير.

بل لأن علاقتنا بصاحبه تغيرت.

ولهذا نجد أن الإنسان يستطيع أن يكون شديد الحساسية تجاه ظلم يتعرض له. وشديد التسامح مع ظلم
يمارسه هو أو من يحبهم.

فالزوجة التي تغضب من كذبة صغيرة قد تجد عشرات الأعذار لأكاذيبها.

والزوج الذي يرفض الإهمال حين يقع عليه قد لا يرى إهماله للآخرين بالوضوح نفسه. والأب الذي
يطالب أبناءه بالاحترام قد يسمح لنفسه بكلمات لا يقبلها منهم.

كل إنسان تقريبًا يملك هذه الازدواجية بدرجات مختلفة.

ليس لأنه منافق بالضرورة. بل لأنه بشر.

نحن نرى أخطاء الآخرين كحقائق. ونرى أخطاءنا كتجارب.

نرى أفعالهم.

ونرى نوايانا. نرى نتائج ما فعلوه.

ونرى ظروف ما فعلناه.

ولهذا يبدو ظلمهم أكبر.

وقد تكون هذه الظاهرة أكثر وضوحًا في السياسة. فالإنسان قد يرفض الفساد بشدة.

ثم يدافع عنه إذا صدر من الشخص الذي يؤيده.
وقد يغضب من الكذب. ثم يبرره إذا خدّم الفكرة التي يؤمن بها.
وقد يرفض الظلم.
ثم يبحث عن ألف سبب لشرحه إذا كان الظالم يقف في المعسكر نفسه. وكأن المبادئ أحياناً تتغير بحسب الاتجاه الذي تهب منه الريح.

لكن الأمر لا يقتصر على السياسة. بل يحدث داخل الأسرة أيضاً.
هناك أم ترفض أن يرفع أحد صوته عليها.
ثم ترفع صوتها على أبنائها يومياً. وهناك أب يطالب أبنائه بالصدق المطلق.
ثم يكذب أمامهم في أبسط المواقف.
وهناك زوجة تطلب الشفافية الكاملة. ثم تخفي ما لا تريد كشفه.
وهناك زوج يريد التفهم لأخطائه.
ولا يمنح التفهم نفسه لأخطاء غيره.

والسبب في ذلك ليس أن الإنسان يحب الظلم. بل لأنه يحب نفسه أكثر مما يعترف.
ويحب قصته أكثر مما يظن.
ويحب أن يبقى بطل الرواية حتى لو اضطر إلى تغيير قواعد اللعبة كلها من أجل ذلك.

ولهذا فإن بعض الناس لا يبحثون عن الحقيقة. بل يبحثون عن ما يؤكد ما يريدون تصديقه.
إذا أحبوا شخصاً بحثوا عن حسناته.
وإذا كرهوه بحثوا عن أخطائه. وإذا انحازوا لفكرة رأوا الأدلة التي تدعمها فقط.
أما ما يخالفها فيختفي تدريجياً من مجال رؤيتهم.
وهكذا لا يصبح العقل أداة لاكتشاف الحقيقة. بل أداة للدفاع عن المواقف التي اتخذناها مسبقاً.

ومن هنا يصبح الظلم المحترم أكثر خطورة من الظلم الواضح. لأن الظلم الواضح يواجه المقاومة.
أما الظلم المحترم فيجد من يدافع عنه.

ويبرره. ويزينه.

حتى يتوقف الناس عن رؤيته كما هو.

ولهذا فإن أخطر لحظة ليست عندما يظهر الظلم. بل عندما يبدأ الناس في التعايش معه.

ثم تبريره.

ثم الدفاع عنه. عندها لا يعود الظلم بحاجة إلى قوة تحميه.

بل يصبح الناس أنفسهم هم من يحمونه.

وهنا نصل إلى المرحلة الأخيرة والأخطر. المرحلة التي لا يصبح فيها الاستغلال مقبولا فقط...

بل يصبح فضيلة.

ويصبح صاحبه نموذجا للنجاح. ويبدأ الناس في تقليده بدل مقاومته.

حين يصبح الاستغلال فضيلة

في البداية يرفض الناس الظلم. ثم يعتادون عليه.

ثم يتوقفون عن ملاحظته.

لكن أحيانا يحدث شيء أخطر من ذلك كله. أحيانا يبدأون بالإعجاب به.

وهنا يصل المجتمع إلى مرحلة خطيرة جدا.

مرحلة لا يعود فيها الاستغلال شيئا معيبا. بل يصبح شيئا يستحق الاحترام.

تأمل الطريقة التي ينظر بها الناس إلى النجاح. كم مرة سألوا:

كيف وصل هذا الإنسان إلى ما وصل إليه؟

وكم مرة اكتفوا بالسؤال: إلى أين وصل؟

في كثير من الأحيان لا يهتم الناس بالطريق.

بل بالنتيجة. فإذا كانت النتيجة مبهرة بما يكفي، بدأت الأسئلة الأخلاقية تتراجع.

وبدأت الإعجابات تزداد.

وبدأت القصص الجميلة تُكتب. حتى لو كان الطريق مليئا بأشياء لا تستحق الإعجاب.

هناك شخص بنى ثروته باستغلال الآخرين. خفض أجورهم.
واستخدم حاجتهم.

وضغط عليهم. لكنه أصبح غنيًا.
وفجأة لا يعود الحديث عن الاستغلال.
بل عن النجاح. وعن الذكاء.
وكان المال يملك قدرة غريبة على غسل السمعة.

وهناك مسؤول وصل إلى منصبه عبر العلاقات والمحسوبيات. وأغلق الأبواب أمام من هم أكفأ منه.
لكن الناس لا يتحدثون كثيرًا عن الطريق.
بل عن المنصب. وعن النفوذ.
وكان الوصول نفسه أصبح دليلًا على الاستحقاق.
حتى لو كان الوصول هو الدليل على العكس.

وهناك إنسان يستخدم الآخرين باستمرار. يتقرب منهم حين يحتاجهم.
ويبتعد عنهم حين تنتهي مصلحته.
ويغير مواقفه بحسب المنفعة. لكنه يحقق أهدافه.
وفجأة يبدأ البعض بوصفه بالواقعي.
أو الذكي. أو الذي يعرف كيف يدير حياته.
وكان الاستغلال أصبح مهارة اجتماعية.
لا عيبًا أخلاقيًا.

وهنا تكمن إحدى أخطر مشكلات البشر. فهم لا يحترمون الفضيلة دائمًا.
بل يحترمون النجاح أحيانًا أكثر من الفضيلة.
ولهذا إذا اجتمع النجاح مع الأخلاق أعجبوا بهما معًا. لكن إذا انفصل النجاح عن الأخلاق، فكثيرون
يختارون النجاح.

ثم يبحثون له عن مبررات لاحقاً.

ولهذا نجد أن بعض الناس لا يريدون أن يكونوا صالحين بقدر ما يريدون أن يكونوا منتصرين.
فالانتصار مفهوم واضح.

يمكن قياسه.

يمكن عرضه. يمكن التفاخر به.

أما النزاهة فغالبًا هادئة.

والعدالة هادئة. والضمير هادئ.

ولا يحصل دائماً على التصفيق الذي يحصل عليه المنتصرون.

ومع مرور الوقت يتعلم المجتمع دروساً خطيرة. يتعلم أن المهم ليس أن تكون عادلاً.
بل أن تبدو ناجحاً.

وليس أن تكون نزيهاً. وحين تنتشر هذه الفكرة يبدأ الناس في تقليد من نجحوا.

لا من استحقوا الاحترام.

وهنا يتحول الاستغلال إلى ثقافة.

فالطفل الذي يرى أن الكاذب يربح. وأن المستغل يربح.

وأن الظالم يربح.

قد يبدأ بالتساؤل: لماذا أكون مختلفاً؟

ولماذا أدفع ثمن الصدقية وحدي؟

ولماذا أتمسك بما لا يتمسك به الآخرون؟ وهكذا ينتقل المرض من شخص إلى آخر.

ومن جيل إلى جيل.

حتى يصبح جزءاً من البيئة نفسها.

لكن الحقيقة التي يكتشفها كثير من الناس متأخراً هي أن النجاح ليس دائماً دليلاً على القيمة. وأن الوصول ليس دائماً دليلاً على الاستحقاق.

وأن القوة ليست دليلاً على الحق.

وأن احترام الناس ليس دائماً دليلاً على الاحترام الحقيقي. فكم من شخص صفق له الجميع وهو لا يستحق.

وكم من شخص تجاهله الجميع وهو يستحق أكثر منهم جميعاً.

ولهذا فإن السؤال الأخلاقي الأهم ليس: من ربح؟

ولا:

من وصل؟ ولا:

من أصبح الأقوى؟

السؤال الأهم هو: ماذا خسر في الطريق؟

وماذا أخذ من الآخرين؟

وماذا دفع الناس ثمناً لنجاحه؟ وهل كان سيصل إلى المكان نفسه لو التزم بالمعايير التي يطالب بها غيره؟

وفي نهاية الأمر لا يكون أخطر اللصوص هو من يسرق في الظلام. بل من يسرق في الضوء.

ويحصل على الاحترام.

لأن اللص الواضح يثير المقاومة. أما اللص المحترم فيصنع مقلدين.

وهذا ما يجعله أكثر خطورة.

وهكذا لا ينتهي السؤال عند الفرد فقط. فقد رأينا كيف يبرر الإنسان نفسه.

وكيف يرى نفسه استثناءً.

وكيف يفهم الآخرون أو يدينهم. وكيف يمكن للمجتمع أن يحترم بعض أشكال الظلم.

لكن يبقى سؤال أكثر خطورة من كل ما سبق:

ماذا يحدث عندما لا يقتنع فرد واحد فقط بأنه على حق... بل تقتنع جماعة كاملة بذلك؟

ماذا يحدث عندما يتحول اليقين إلى عقيدة؟

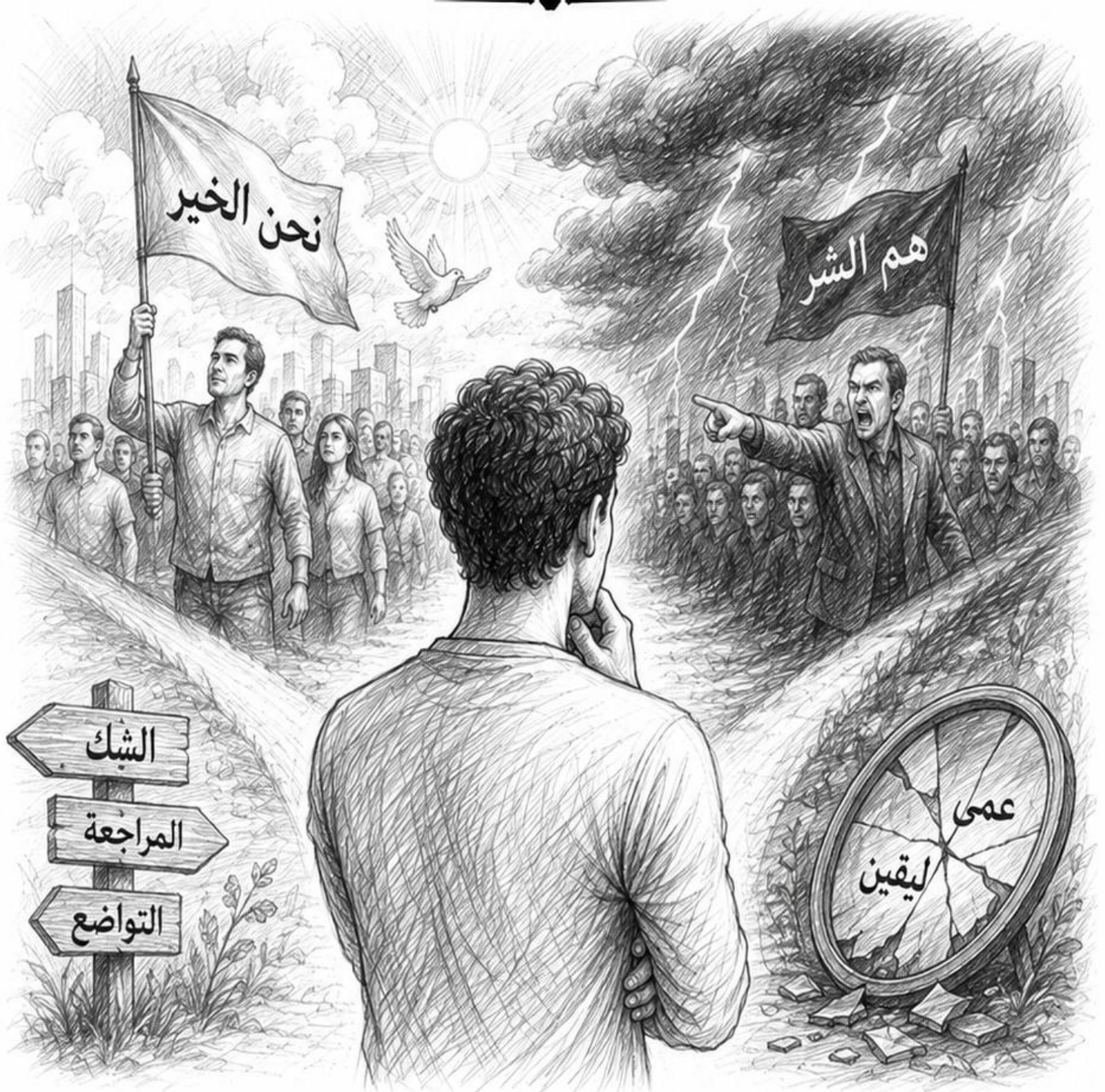
وعندما تتحول الفكرة إلى شيء أهم من الإنسان نفسه؟ وعندما يصبح الموت مجرد ثمن مقبول من أجل قضية أكبر؟

من هنا تبدأ الحكاية التالية.
حكاية الإنسان الذي يقتل...
وهو مقتنع تمامًا أنه ينقذ العالم..

الفصل الخامس

عندما يقتل اليقين نحن الخير

كلنا أبطال قصصنا الخاصة



الفصل الخامس

عندما يقتل اليقين

نحن الخير

في طفولتنا كانت القصص بسيطة. كان هناك بطل.

وكان هناك شرير.

وكان الفرق بينهما واضحًا. البطل يفعل الخير.

والشرير يفعل الشر.

وكان كل شيء يبدو مفهومًا. لكننا عندما كبرنا اكتشفنا شيئًا مختلفًا.

اكتشفنا أن الحياة لا تشبه القصص.

وأن البشر لا يرون أنفسهم بالطريقة التي نراهم بها. ففي القصص يعرف الشرير أنه شرير.

أما في الواقع فغالبًا لا يعرف ذلك.

بل إنه في كثير من الأحيان يرى نفسه البطل. وهنا تبدأ المشكلة.

حين يتحدث الإنسان عن نفسه، فإنه نادرًا ما يبدأ بأخطائه. يبدأ بأسبابه.

وبظروفه.

وبنواياه. ولهذا يبدو منطقيًا في نظر نفسه.

بل أحيانًا يبدو نبيلًا أيضًا.

فالزوجة التي تخفي الحقيقة لا ترى نفسها مخادعة. بل امرأة تحاول حماية نفسها.

والزوج الذي يهمل لا يرى نفسه مهملاً.

بل رجلًا يتحمل أعباء الحياة. والابن العاق لا يرى نفسه عاقًا.

بل شخصًا يبحث عن حريته.

والأب القاسي لا يرى نفسه مؤذيًا. بل أبًا يحاول إنقاذ أبنائه من أخطاء الحياة.

الجميع تقريبًا يملكون قصة تجعلهم في الجانب المضيء من الصورة.

لكن هناك مرحلة أكثر خطورة من ذلك. مرحلة لا يكتفي فيها الإنسان بأنه يرى نفسه جيدًا.

بل يبدأ في تقسيم العالم كله إلى معسكرين.

معسكر الخير. ومعسكر الشر.

ويضع نفسه تلقائيًا داخل الأول.

هنا لا يعود السؤال: هل أنا مخطئ؟

بل يصبح:

كيف أواجه المخطئين؟ ولا يعود السؤال:

هل يمكن أن أراجع نفسي؟

بل يصبح: كيف أغير الآخرين؟

وفي هذه اللحظة يبدأ اليقين في النمو.

اليقين في بدايته يبدو شيئًا جميلًا. فالناس يحبون الوضوح.

ويحبون الإجابات.

ويحبون الشعور بأنهم يعرفون الطريق الصحيح. لكن المشكلة أن اليقين حين يكبر أكثر من اللازم يتحول إلى شيء آخر.

يتحول إلى عمى.

عمى يجعل الإنسان يرى أخطاء الجميع... إلا أخطاءه.

ويرى ضلال الجميع...

إلا ضلاله. ويرى خطر الجميع...

إلا الخطر الذي قد يمثله هو نفسه.

ولهذا فإن أخطر جملة يمكن أن يقولها الإنسان ليست: "أنا غاضب."

ولا:

"أنا أكره." ولا:

"أنا أريد الانتقام."

بل: "أنا على حق تمامًا."

لأن هذه الجملة هي بداية الطريق الذي يجعل الإنسان يتوقف عن طرح السؤال الأهم:

ماذا لو كنت مخطئاً؟

عندما تصبح الفكرة أهم من الإنسان

في البداية تكون الفكرة مجرد وسيلة. وسيلة لفهم العالم.
وسيلة لتنظيم الحياة.

وسيلة تساعد الإنسان على معرفة ما يراه صحيحاً وما يراه خاطئاً. لكن شيئاً غريباً يحدث أحياناً.
شيئاً يجعل العلاقة بين الإنسان وفكرته تنقلب تماماً.
فبدل أن تخدم الفكرة الإنسان... يبدأ الإنسان في خدمة الفكرة.

حين تكون الفكرة في مكانها الطبيعي، تبقى قابلة للمراجعة. وقابلة للنقاش.
وقابلة للتصحيح.

أما حين تتحول إلى جزء من الهوية، يصبح المساس بها مساساً بالإنسان نفسه. وهنا يبدأ الخطر.
لأن الإنسان قد يغير رأياً بسهولة.
لكنه نادراً ما يغير جزءاً من هويته.

تخيل أباً أقنع نفسه أن القسوة هي الطريقة الوحيدة للتربية. في البداية كانت مجرد قناعة.
ثم أصبحت مبدأ.

ثم أصبحت جزءاً من شخصيته. وبعد سنوات لم يعد قادراً على رؤية أي طريقة أخرى.
كل من يخالفه يبدو ساذجاً.

وكل من يعترض عليه يبدو جاهلاً. وكل من ينتقده يبدو عدواً.

ليس لأنه درس كل الآراء الأخرى ورفضها.

بل لأنه لم يعد يرى غير رأيه أصلاً.

والأمر نفسه قد يحدث مع الزوج. قد يقتنع أن الرجولة تعني السيطرة.

ثم تتحول الفكرة إلى حقيقة مطلقة في عقله.

فيبدأ في تفسير كل شيء من خلالها. إذا اعترضت زوجته فهي لا تحترمه.

إذا ناقشته فهي تتحداه.

إذا اختلفت معه فهي تتمرد عليه. لا لأنه يفهم الموقف هكذا فقط.
بل لأنه لم يعد قادرًا على فهمه بطريقة أخرى.

والزوجة قد تقع في الفخ نفسه. قد تتحول فكرة معينة عن الظلم أو الحقوق أو الاستقلال إلى عدسة ترى بها كل شيء.

فتصبح كل نصيحة محاولة للسيطرة.

وكل اختلاف هجومًا. وكل نقد إهانة.

وهكذا لا يعود الإنسان يرى الواقع.

بل يرى الفكرة التي يحملها عن الواقع.

لكن المشكلة تصبح أكبر بكثير حين تنتقل من الأفراد إلى الجماعات. حين تصبح الفكرة جماعية.

حين لا يعود الإنسان وحده من يؤمن بها.

بل آلاف. أو ملايين.

عندها يحصل شيء خطير جدًا.

فالفرد قد يشك في نفسه. أما الجماعة فتصنع يقينًا هائلًا.

يقينًا يجعل الإنسان يشعر أن الحق معه لأن الجميع حوله يرددون الشيء نفسه.

وهنا تبدأ الفكرة في اكتساب قيمة أكبر من البشر أنفسهم. في البداية تُخلق الأفكار لخدمة الناس.

ثم تتحول تدريجيًا إلى شيء يجب أن يضحى الناس من أجله.

ثم إلى شيء يجب أن يتألم الناس من أجله. ثم إلى شيء يجب أن يموت الناس من أجله.

وفي كل خطوة يبدو الأمر منطقيًا أكثر لمن يعيش داخل الفكرة.

وأقل منطقية لمن ينظر إليها من الخارج.

ولهذا فإن التاريخ مليء بأشخاص أحبوا أفكارهم أكثر من البشر. لم يكونوا يكرهون الناس بالضرورة.

بل كانوا مقتنعين أن الفكرة أهم.

وأن القضية أهم. وأن الهدف أهم.

وأن الإنسان الفرد مجرد تفصيل صغير في مشروع أكبر.

وهنا يبدأ الضمير بالتراجع. لأن الضمير يتعامل مع الوجوه.

أما الأفكار فغالبًا لا ترى الوجوه.

حين تنتظر إلى إنسان واحد يتألم، يصبح التعاطف سهلًا. لكن حين يتحول ذلك الإنسان إلى رقم داخل فكرة كبيرة، يصبح تجاهله أسهل.

ولهذا كانت الكوارث الكبرى دائمًا تبدأ من اللحظة التي تصبح فيها الفكرة أهم من الإنسان.

والشعار أهم من الحياة. والهدف أهم من الرحمة.

فالإنسان الذي ما زال يرى البشر أفرادًا يبقى قادرًا على التردد. ويبقى قادرًا على الشفقة.

ويبقى قادرًا على السؤال.

أما الإنسان الذي لم يعد يرى إلا الفكرة... فإنه يبدأ في فقدان تلك القدرة شيئًا فشيئًا.

حتى يصل إلى مرحلة يقتنع فيها أن الأذى ضروري.

وأن القسوة واجبة. وأن التضحية بالآخرين مقبولة.

طالما أنها تخدم ما يؤمن به.

وهكذا لا تبدأ الكوارث من الحقد دائمًا. بل تبدأ أحيانًا من الحب.

حب الفكرة أكثر من البشر.

وحب اليقين أكثر من الحقيقة. وحب القضية أكثر من الإنسان.

وفي تلك اللحظة بالذات تبدأ رحلة أخرى أكثر خطورة.

رحلة أشخاص تألموا يومًا... ثم تحولوا إلى مصدر للألم نفسه.

الضحايا الذين أصبحوا جلادين

من أكثر الأشياء إيلاّمًا في الحياة أن الإنسان لا يتأذى فقط من الشر. بل قد يتعلمه أيضًا.

وقد يحمل جراحه سنوات طويلة.

ثم يكتشف متأخراً أنه بدأ يجرح الآخرين بالطريقة نفسها. أو بطريقة مختلفة لا تقل قسوة.

هناك اعتقاد مريح يقول إن من يتألم يصبح أكثر رحمة. وأن من يعرف الوجد لا يمكن أن يسببه لغيره. لكن الواقع لا يسير دائماً بهذا الشكل.

فالألم لا يجعل الإنسان أفضل تلقائياً. ولا يجعله أسوأ تلقائياً.

إنه فقط يمنحه خياراً صعباً.

إما أن يفهم معاناة الآخرين أكثر. أو أن ينقل معاناته إليهم.

هناك أب تعرض للقسوة في طفولته. كُسرت روحه مرات كثيرة.

وسمع كلمات لم يكن ينبغي لطفل أن يسمعها.

وعاش خوفاً طويلاً. ثم كبر.

وفي لحظة ما وقف أمام الخيار نفسه.

إما أن يقول: "لقد عرفت كم كان ذلك مؤلماً، ولذلك لن أفعله."

أو يقول:

"لقد تربيت هكذا ولم يحدث لي شيء." وفي الجملة الثانية تختبئ أجيال كاملة من الألم.

فبعض الناس لا يعالجون جراحهم. بل يعتادونها.

ثم يبدأون باعتبارها طبيعية.

وحين يواجهون بذلك لا يرون أنفسهم ظالمين. بل أوفياء لما تعلموه.

وكأن الماضي تحول إلى قانون.

وكأن الألم تحول إلى منهج حياة.

وهناك زوج أو زوجة تعرضا للخيانة. وعاشا سنوات من الانكسار.

وفقدوا الثقة.

ثم بعد سنوات وجدا نفسيهما يفعلان بالآخرين ما كرهوا أن يفعل بهما. ليس لأنهما ولدا هكذا.

بل لأن الجرح الذي لم يُعالج تحول إلى سلاح.
والألم الذي لم يُفهم تحول إلى طريقة دفاع.

فالإنسان حين يتألم كثيرًا يبدأ أحيانًا في بناء جدار حول نفسه. وفي البداية يكون الجدار للحماية.
ثم يصبح للعزلة.
ثم يبدأ في إيذاء كل من يقترب منه. دون أن يشعر.
أو وهو يشعر لكنه يرى ذلك ضروريًا.

وهناك ابن عاش سنوات يشعر بالإهمال. أو الرفض.
أو التقليل من قيمته.
ووعده نفسه يومًا أنه لن يكون مثل من آذاه. ثم يكبر.
ويكتشف أنه يكرر أشياء كثيرة كان يكرهها.
في طريقته مع زوجته. أو أبنائه.
أو أصدقائه.
ليس لأنه أراد ذلك. بل لأن الجروح التي لا تُفهم تتحول غالبًا إلى سلوك.
والسلوك المتكرر يتحول إلى شخصية.

ولهذا فإن الألم ليس فضيلة في حد ذاته. كما أنه ليس لعنة في حد ذاته.
إنه مادة خام.
يمكن أن تخرج منها الحكمة. ويمكن أن يخرج منها الانتقام.
يمكن أن تخرج منها الرحمة.
ويمكن أن تخرج منها القسوة. والفرق بين الطريقتين ليس حجم الألم.
بل طريقة التعامل معه.

لكن أخطر ما يحدث ليس أن يؤدي الإنسان الآخرين. بل أن يقنع نفسه أن إيذاءهم عدالة.

وهنا يعود اليقين مرة أخرى.

فالإنسان لا يقول: "أنا أريد أن أؤذيهم."

بل يقول:

"أنا فقط أعطيتهم ما يستحقون." ولا يقول:

"أنا أنتقم".

بل يقول: "أنا أحقق العدالة."

ولا يقول:

"أنا أكرر ما حدث لي." بل يقول:

"أنا أفعل ما يجب فعله".

وهكذا يرتدي الجرح القديم ملابس جديدة. ويظهر كأنه فضيلة.

بينما هو في الحقيقة ألم لم يجد طريقه إلى الشفاء.

ولهذا فإن بعض أخطر البشر ليسوا الذين لم يتألموا. بل الذين تألموا كثيرًا...

ثم جعلوا من ألمهم مبررًا لإيلاء الآخرين.

فهم لا يرون أنفسهم أشرارًا. بل ضحايا أخيرًا حصلوا على حقهم.

وهنا تصبح الكارثة أكثر تعقيدًا.

لأن الشر لم يعد يأتي من الكراهية فقط. بل من شعور عميق بالاستحقاق.

ومن اقتناع كامل بأن ما يحدث هو العدالة نفسها.

وفي هذه المرحلة يصل الإنسان إلى أخطر نقطة في الرحلة كلها. النقطة التي لا يعود فيها العنف عنفًا.

ولا القسوة قسوة.

ولا الأذى أذى. بل يتحول كل ذلك إلى واجب أخلاقي.

إلى شيء يعتقد الإنسان أنه يجب أن يفعله.

لا لأنه شرير... بل لأنه مقتنع أنه فاضل.

وهنا تبدأ أكثر الكوارث البشرية رعبًا.

حين يصبح القتل نفسه... فضيلة.

القتل باسم الفضيلة

من السهل على الإنسان أن يرفض القتل عندما يراه مجرداً. عندما يرى إنساناً يهاجم إنساناً آخر بلا سبب.

عندما يرى الدم.

والخوف. والألم.

عندما يرى الضحية كما هي.

إنساناً. يشبهه.

ويشعر كما يشعر.

ويخاف كما يخاف. لكن الصورة تتغير حين تدخل الفكرة.

وحين يدخل اليقين.

وحين يبدأ الإنسان في إقناع نفسه أن ما يفعله ليس جريمة... بل رسالة.

في تلك اللحظة لا يعود السؤال: هل ما أفعله مؤدٍ؟

بل يصبح:

هل ما أفعله ضروري؟ ولا يعود السؤال:

كم سيتألم الناس؟

بل يصبح: ما الثمن الذي يجب دفعه؟

وهنا تبدأ أخطر عملية خداع يمكن أن يمارسها العقل على نفسه.

تحويل الوسيلة إلى شيء ثانوي. والغاية إلى شيء مقدس.

فالإنسان بطبيعته لا يحب رؤية نفسه مؤذياً. ولهذا يبحث دائماً عن معنى أكبر لأفعاله.

عن قصة تجعلها مقبولة.

عن هدف يجعلها نبيلة. عن مبرر يجعلها تبدو مختلفة عما هي عليه.

ولهذا لم يقل أحد تقريباً:

"أنا أفعل الشر لأنه شر." بل قال:

"أنا أفعل ما يجب فعله".

كم من أب حطم أبناءه وهو مقتنع أنه يبني شخصياتهم؟ وكم من أم زرعت الخوف في قلوب أطفالها وهي مقتنعة أنها تحميهم؟

وكم من زوج سيطر على زوجته وهو مقتنع أنه يحافظ على الأسرة؟

وكم من زوجة حطمت احترام زوجها لنفسه وهي مقتنعة أنها تدافع عن كرامتها؟ في كل مرة كان هناك ألم.

وفي كل مرة كان هناك ضحايا.

لكن في كل مرة أيضًا كان هناك تفسير يجعل الأذى يبدو فضيلة.

وهذا ما يجعل الشر المعتمد على اليقين أخطر من الشر المعتمد على الغضب. فالغضب قد يهدأ. والمنتمق قد يتراجع.

أما المؤمن بأنه يؤدي واجبًا أخلاقيًا... فغالبًا لا يتوقف.

بل يشعر أحيانًا أن التراجع خيانة.

وأن الرحمة ضعف. وأن التردد خطأ.

ولهذا كانت أكثر الفترات دموية في التاريخ غالبًا مليئة بالشعارات النبيلة. العدالة. الحرية.

الخلاص. الإصلاح.

النظام.

الحقيقة. كلها كلمات جميلة.

لكن المشكلة ليست في الكلمات.

بل في الإنسان الذي يقتنع أن امتلاك الكلمة يمنحه الحق في كل شيء. حتى في سحق الآخرين.

فالخطر لا يبدأ عندما يؤمن الإنسان بفكرة. بل عندما يؤمن أن فكرته معصومة.

وعندما يؤمن أن خصومه لا يملكون أي جزء من الحقيقة.
وعندما يؤمن أن كل وسيلة تصبح مقبولة طالما أنها تخدم الهدف. عندها تبدأ الحدود الأخلاقية بالتآكل.
شيئاً فشيئاً.
حتى تختفي.

وهناك لحظة دقيقة جداً في هذه الرحلة. لحظة ينتقل فيها الإنسان من:
"هذا مؤلم لكنه ضروري".
إلى: "هذا مؤلم ولذلك هو ضروري".
وهنا تصبح القسوة دليلاً على الإخلاص.
ويصبح التشدد دليلاً على القوة. ويصبح الأذى دليلاً على الجدية.
وكان الرحمة نفسها أصبحت موضع شك.

لكن الحقيقة التي تتكرر عبر التاريخ كله هي أن الفكرة التي تحتاج إلى تحطيم البشر كي تعيش... ليست
عظيمة كما يظن أصحابها.
وأن القضية التي لا تستطيع البقاء إلا بإلغاء إنسانية الآخرين...
تحمل في داخلها بذور خرابها. وأن الإنسان حين يفقد قدرته على التعاطف مع من يختلف معه...
يبدأ بفقدان جزء من إنسانيته هو.

ولهذا لم تكن الكوارث الكبرى تبدأ من الوحوش. بل من بشر عاديين.
بشر أحبوا أفكارهم أكثر مما أحبوا البشر.
وبشر وثقوا بيقينهم أكثر مما وثقوا بضمائرهم. وبشر توقفوا عن طرح السؤال الذي يحمي الإنسان من
نفسه:
"ماذا لو كنت مخطئاً؟"

وهكذا نصل إلى الحقيقة التي حاول هذا الفصل الاقتراب منها منذ بدايته. الإنسان لا يصبح خطيراً لأنه
يكره فقط.

ولا لأنه يغضب فقط.
ولا لأنه يتألم فقط. بل يصبح خطيراً عندما يقتنع أن كل ما يفعله صحيح.
وعندما يختفي الشك.
وعندما يموت التردد. وعندما يتحول ضميره من قاضٍ يراجع...
إلى محامٍ يدافع عنه.

أخطر البشر

حين يسمع الناس عبارة "شخص خطير"، فإنهم يتخيلون أشياء كثيرة. قد يتخيلون مجرمًا.
أو قاتلاً.
أو طاغية. لكن الحياة تعلمنا شيئاً مختلفاً.
فأخطر البشر ليسوا دائماً أولئك الذين يعرفون أنهم سيئون.
بل أولئك الذين توقفوا تمامًا عن احتمال فكرة أنهم قد يكونون مخطئين.

فالإنسان الذي يعرف أنه أخطأ ما زال يملك فرصة. قد يندم.
وقد يتراجع.

وقد يعتذر. أما الإنسان الذي أقنع نفسه أن كل ما يفعله صحيح...
فقد أغلق الباب أمام كل ذلك.
لأنه لم يعد يرى سبباً للمراجعة أصلاً.

في بداية هذا الكتاب رأينا أن الإنسان يميل إلى حماية صورته عن نفسه. ثم رأينا كيف يقنع نفسه أنه استثناء.

وكيف يفسر أفعاله بطريقة أكثر رحمة مما يفسر بها أفعال الآخرين.
ثم رأينا كيف يمكن للمجتمع أن يزين بعض أشكال الظلم. وفي هذا الفصل رأينا المرحلة الأخيرة من الرحلة.
المرحلة التي يتحول فيها الخطأ إلى واجب.
والقسوة إلى فضيلة. والأذى إلى رسالة.

ولذلك فإن أخطر لحظة لا تكون عندما يقتنع الإنسان أنه قوي. بل عندما يقتنع أنه معصوم.
ولا تكون عندما يعتقد أنه يملك الحقيقة.

بل عندما يعتقد أنه يملكها كاملة. فالحقيقة الكاملة لا يملكها بشر.
والإنسان الذي ينسى ذلك يبدأ في التحول شيئاً فشيئاً إلى سجين يقينه.

تأمل أكثر الناس حكمة الذين قابلتهم في حياتك. غالباً لم يكونوا أصحاب الأصوات الأعلى.
ولا أكثر الناس ثقة بأنفسهم.

ولا أكثرهم حديثاً عن صوابهم. بل كانوا أكثر الناس قدرة على قول جملة بسيطة جداً:
"ربما أكون مخطئاً".

هذه الجملة الصغيرة هي ما يحمي الإنسان من نفسه. هي ما يبقي الباب مفتوحاً.
هي ما يمنع الفكرة من التحول إلى سجن.

وما يمنع القناعة من التحول إلى تعصب. وما يمنع الثقة من التحول إلى غرور.

أما أكثر الناس خطراً فهم أولئك الذين فقدوا هذه الجملة. الذين يملكون إجابة لكل سؤال.
وتبريراً لكل فعل.

وعذراً لكل خطأ. مهما حدث.

ومهما فعلوا.

ومهما كانت النتائج.

وحين يصل الإنسان إلى هذه المرحلة يصبح من الصعب جداً أن يتعلم. لأن التعلم يحتاج إلى اعتراف
بالنقص.

ويصبح من الصعب جداً أن يتغير.

لأن التغيير يحتاج إلى الاعتراف بالخطأ. ويصبح من الصعب جداً أن يفهم الآخرين.

لأن الفهم يحتاج إلى التواضع.

وكل هذه الأشياء تختفي عندما يسيطر اليقين المطلق.

ولهذا فإن الخير الحقيقي لا يكمن في أن يكون الإنسان بلا أخطاء. فهذا مستحيل.
ولا في أن يكون دائماً على حق.
فهذا وهم. ولا في أن ينتصر في كل نقاش.
أو يفرض رأيه على الجميع.
الخير الحقيقي يبدأ من مكان أكثر هدوءاً. من القدرة على مراجعة النفس.
من الشجاعة التي تجعل الإنسان ينظر إلى أفكاره كما ينظر إلى أفكار الآخرين.
ومن الصدق الذي يسمح له بأن يقول: "قد أكون مخطئاً."
حتى عندما يكون مقتنعاً أنه محق.

وربما لهذا السبب لم تكن المشكلة الكبرى في تاريخ البشر هي وجود الأشرار. بل وجود أناس اعتقدوا
أنهم لا يمكن أن يكونوا أشراراً.
ولم تكن الكارثة في الكراهية وحدها.
بل في اليقين الذي منح الكراهية غطاءً أخلاقياً. ولم تكن المأساة في العنف وحده.
بل في تحويل العنف إلى واجب.

وفي النهاية يبقى السؤال الذي يجب أن يرافق كل إنسان طوال حياته: متى كانت آخر مرة شككت فيها
في نفسك؟
متى كانت آخر مرة راجعت فكرة تؤمن بها؟
متى كانت آخر مرة سمحت لاحتمال أن الطرف الآخر قد يرى شيئاً لا تراه أنت؟ فربما لا يكون الفرق
بين الحكمة والجهل...
هو مقدار ما نعرفه.
بل مقدار ما زلنا مستعدين لمراجعته. وربما لا يكون أخطر البشر هو من يرتكب الخطأ.
بل من أصبح عاجزاً عن رؤيته.

عندما تصبح القسوة واجبًا

“أنا أفعل هذا لمصلحتك”



الفصل السادس

عندما تصبح القسوة واجبًا

أنا أفعل هذا لمصلحتك

من النادر أن يقول الإنسان: "أنا أؤذيك لأنني أستمتع بإيذائك."

ومن النادر أن يعترف:

"أنا أتحكم بك لأنني أحب السيطرة." أو:

"أنا أقسو عليك لأن القسوة تعجبني."

في معظم الأحيان تكون القصة مختلفة. وأكثر تعقيدًا.

وأخطر أيضًا.

لأن الإنسان لا يقدم القسوة لنفسه على أنها قسوة. بل على أنها ضرورة.

وعلى أنها واجب.

في الفصول السابقة رأينا كيف يبرر الإنسان أخطائه. وكيف يقنع نفسه أنه استثناء.

وكيف يمكن أن يتحول اليقين إلى مصدر للأذى.

أما هنا فنصل إلى أحد أكثر أشكال الأذى انتشارًا. الأذى الذي يرتدي ثوب الرعاية.

والسيطرة التي ترتدي ثوب الحب.

والقسوة التي ترتدي ثوب المسؤولية.

هناك أب يصرخ كل يوم. ويكسر ثقة أبنائه بنفس الطريقة التي يكسر بها صوته جدران المنزل.

وحين يُواجه بما يفعله لا يقول:

"أنا قاسٍ." بل يقول:

"أنا أربي."

وكان التربية والقسوة شيء واحد. وكان الخوف هو الطريق الوحيد لصناعة إنسان جيد.

وهناك أم تراقب كل شيء. كل قرار.

كل صديق.

كل خطوة. كل فكرة.
لا تسمح بالخطأ.
ولا تسمح بالتجربة. "أنا أخاف عليكم."
وقد تكون صادقة.
وقد يكون خوفها حقيقياً. لكن الحب وحده لا يجعل كل تصرف صحيحاً.
فالخوف أحياناً يحمي.
وأحياناً يخنق. والفرق بينهما ليس النية.

وهناك زوج يعتقد أن من واجبه أن يتخذ كل القرارات. أن يقرر.
ويختار.
ويحدد. وحين تعترض زوجته لا يرى اعتراضها رأياً مختلفاً.
بل يراه تهديداً للنظام.
أو خروجاً عن الحدود. وفي داخله لا يشعر أنه ظالم.
بل يشعر أنه يقوم بدوره.
وأنه يتحمل المسؤولية التي لا يتحملها غيره.

وهناك زوجة تستخدم نوعاً آخر من القسوة. ليس بالصوت المرتفع.
ولا بالغضب.
بل بالتقليل المستمر. تجعل الطرف الآخر يشعر أنه لا يكفي أبداً.
ولا ينجح أبداً.
ولا يصل أبداً. "أنا فقط أريده أن يصبح أفضل."
لكن بين التشجيع والتعطيم مسافة كبيرة.
وبين النصيحة والإهانة فرق هائل.

ولهذا فإن القسوة نادراً ما تدخل حياتنا معلنة عن نفسها. لا تطرق الباب قائلة:

"أنا القسوة".

بل تدخل تحت أسماء أجمل. الحزم.

المصلحة.

الحرص. التربية.

الواجب.

الحب. ولهذا يصعب اكتشافها.

فالإنسان يستطيع مقاومة عدو واضح. لكنه يجد صعوبة في مقاومة شيء يأتيه على هيئة نصيحة.

أو حماية.

أو رعاية. خصوصًا عندما يصدر من شخص يحبه.

أو يحترمه.

أو يحتاج إليه.

ولهذا يكبر كثير من الناس وهم مرتبكون. يشعرون بالألم.

لكنهم لا يعرفون لماذا.

يشعرون بالخوف. لكنهم لا يملكون تفسيرًا واضحًا.

يشعرون أنهم مجروحون.

لكنهم يسمعون طوال حياتهم أن ما حدث كان لمصلحتهم. فيبدأون بالتشكيك في مشاعرهم بدل التشكيك فيما تعرضوا له.

وهنا تكمن قوة هذا النوع من القسوة. فهو لا يؤذي الإنسان فقط.

بل يجعله أحيانًا يشعر بالذنب لأنه تأذى.

ويجعله يعتقد أن المشكلة في حساسيته. وفي ضعفه.

وفي فهمه.

لكن الحقيقة تبقى كما هي. فالنية الطيبة لا تمنع الجرح دائمًا.

والحب لا يجعل كل شيء مباحًا.

والخوف على الآخرين لا يمنحنا الحق في السيطرة عليهم. كما أن الرغبة في حمايتهم لا تمنحنا الحق في كسرهم.

ولهذا فإن السؤال ليس: هل كان يقصد الخير؟

بل:

هل كان الخير الذي يقصده يحتاج فعلاً إلى كل هذا الأذى؟ وهنا تبدأ واحدة من أصعب الحقائق التي يواجهها الإنسان.

حقيقة أن الحب نفسه...

قد يتحول أحياناً إلى وسيلة للإيذاء. وأن بعض أكثر الجروح عمقاً...

لم تأت من الكراهية.

بل من أشخاص كانوا مقتنعين أنهم يفعلون الصواب.

الحب الذي يؤدي

نحن نربط الحب عادة بالدفء. وبالأمان.

وبالطمأنينة.

ولهذا يصعب على كثير من الناس أن يتقبلوا فكرة أن الحب قد يكون أحياناً مصدرًا للأذى. ليس لأن الحب سيئ.

بل لأن البشر أحياناً يخلطون بين الحب والتملك.

وبين الرعاية والسيطرة. وبين الاهتمام والتحكم.

هناك أب يحب أبنائه بصدق. ويخاف عليهم بصدق.

ويريد لهم حياة أفضل بصدق.

لكن هذا الحب يتحول تدريجياً إلى سجن. يختار لهم كل شيء.

يفكر بدلاً منهم.

ويقرر بدلاً منهم. ويمنع عنهم التجربة بحجة الحماية.

ويمنع عنهم الخطأ بحجة الخوف عليهم.
ويمنع عنهم الاستقلال بحجة أنه يعرف أكثر منهم. ومع الوقت لا يكبر الأبناء.
بل يكبر خوفهم.
ويكبر شعورهم بأنهم غير قادرين على الحياة وحدهم.

ولأن الأب يحبهم فعلاً، فإنه لا يرى المشكلة. فهو ينظر إلى نيته.
بينما يعيش أبنائه النتيجة.
وكم من مرة اختلفت النوايا عن النتائج.

هناك فرق كبير بين أن تساعد إنساناً على الوقوف... وأن تمنعه من المشي خوفاً من السقوط.
الأول حب.
أما الثاني فقد يبدأ حباً. لكنه ينتهي إلى شيء آخر.
شيء يشبه السيطرة أكثر مما يشبه الرعاية.

والأمر نفسه يحدث في العلاقات. هناك زوج يحب زوجته.
لكنه يريد أن يعرف كل شيء.
أين ذهبت. ومع من تحدثت.
وماذا قالت.
ثم يصبح حياة كاملة تحت التفثيش. ومع ذلك يظل مقتنعاً أنه يحبها.
وقد يكون فعلاً يحبها.
لكن الحب لا يجعل التملك فضيلة.

وهناك زوجة تحب زوجها. لكنها لا تسمح له بمساحة خاصة.
ولا بأصدقاء مستقلين.
ولا بقرارات لا تمر عبرها. ولا بحياة لا تكون هي مركزها.

وتسمى ذلك قربًا.

وتسميه مشاركة. بينما هو في الحقيقة خوف من الفقد.

ارتدى ملابس الحب.

ولهذا فإن الحب أحيانًا لا يكون المشكلة. بل الخوف المختبئ داخله.

الخوف من الخسارة.

الخوف من الرفض. الخوف من التغيير.

الخوف من أن يعيش الآخر حياة لا نستطيع التحكم بها.

وعندما يقود الخوف العلاقة بدل الحب... تبدأ القسوة في الظهور.

لكنها تظهر بصورة مهذبة.

وصامتة. ويصعب اكتشافها.

وهناك نوع آخر أكثر خفاءً. الحب الذي يجعل الإنسان يؤذي لأنه يعتقد أن الألم مفيد.

الأب الذي يجرح ابنه ليجعله قويًا.

والأم التي تحطم ثقة ابنتها بنفسها حتى لا تصبح مغرورة. والزوج الذي يقسو حتى "تتعلم".

والزوجة التي تهين حتى "يتغير".

في كل مرة يوجد هدف جيد في الظاهر. لكن الطريق إليه مليء بالجراح.

والمشكلة أن بعض الناس يقيسون نجاحهم بالنتيجة فقط. إذا نجح الابن بعد سنوات قال الأب:

"أرأيت؟ كانت القسوة ضرورية".

وإذا أطاعت الزوجة قال الزوج: "أرأيت؟ الشدة كانت الحل".

لكنهم لا يسألون السؤال الآخر.

كم خوفًا زرعوا؟ كم ألمًا تركوا؟

كم ندبة بقيت داخل الشخص الآخر؟

فالإنسان قد ينجح رغم الجرح. وليس بسببه.

وقد يصبح قويًا رغم القسوة.

ولهذا فإن بعض أكثر الجروح عمقًا لا تأتي من أعدائنا. بل من الذين أحبونا.
ومن الذين أحببناهم.
ومن الذين كانوا مقتنعين أنهم يفعلون الأفضل لنا. وهذا ما يجعل الأمر معقدًا.
فالضحية تشعر بالألم.
وفي الوقت نفسه تشعر بالذنب لأنها تألمت. لأن من جرحها كان يحبها.
أو هكذا كانت تعتقد.

لكن الحب الحقيقي لا يحتاج إلى تحطيم الإنسان حتى يبينه. ولا يحتاج إلى إذلاله حتى يعلمه.
ولا يحتاج إلى إخافته حتى يجعله يحترمك.
ومن هنا نصل إلى واحدة من أكثر الأفكار خداعًا في العلاقات الإنسانية: الاعتقاد أن الخوف هو
الاحترام.
وأن الطاعة هي الحب.
وأن الصمت هو الاقتناع. بينما الحقيقة مختلفة تمامًا.

الخوف ليس احترامًا

من أكثر الأخطاء التي تتكرر في العلاقات الإنسانية أن يخلط الناس بين الخوف والاحترام. فكلاهما قد
ينتج الصمت.
وكلاهما قد ينتج الطاعة.
وكلاهما قد يجعل الإنسان يتراجع خطوة إلى الخلف. لكن ما يحدث داخل النفس مختلف تمامًا.

الطفل الذي يخاف من أبيه قد يطيعه. لكنه لا يحترمه بالضرورة.
قد يتجنب الخطأ أمامه.
لكنه لا يتعلم لماذا الخطأ خطأ. وقد يتوقف عن الكلام.
لكن ليس لأنه اقتنع.

بل لأنه خائف. وهناك فرق هائل بين الاثنين.

فالاحترام يجعلك تستمع. أما الخوف فيجعلك تصمت.

والاحترام يجعلك تقتنع.

أما الخوف فيجعلك تتجنب العقاب. والاحترام يبقى حتى في غياب الطرف الآخر.

أما الخوف فيختفي غالبًا بمجرد اختفاء مصدره.

ولهذا نجد كثيرًا من الآباء يظنون أنهم نجحوا في التربية. لأن أبناءهم كانوا مطيعين. هادئين.

لا يعترضون. ولا يناقشون.

لكنهم يكتشفون بعد سنوات أن أبناءهم لم يكونوا مقتنعين.

بل كانوا خائفين. وحين اختفى الخوف...

اختفت الطاعة معه.

وهناك مدير يعتقد أن موظفيه يحترمونه. لأنهم لا يعارضونه.

ولا يناقشونه.

ولا ينتقدونه. لكن الحقيقة أنهم لا يشعرون بالأمان الكافي للكلام.

ولهذا يلتزمون الصمت.

وما يبدو احترامًا من الخارج... قد يكون خوفًا من الداخل.

وفي العلاقات الزوجية يحدث الأمر نفسه. هناك أزواج يظنون أنهم يملكون علاقة مستقرة.

لأن الطرف الآخر لا يعترض كثيرًا.

ولا يناقش كثيرًا. ولا يطلب كثيرًا.

لكنهم لا ينتبهون إلى أن الاستسلام يشبه الهدوء من بعيد.

بينما هو مختلف تمامًا من الداخل. فبعض الناس لا يصمتون لأنهم مرتاحون.

بل لأنهم تعبوا من المحاولة.

وهنا تبدأ واحدة من أخطر نتائج القسوة. أنها لا تبني شخصية قوية.

بل تبني شخصية خائفة.

والشخص الخائف لا يتعلم كيف يفكر. بل كيف يتجنب الخطر.

ولا يتعلم كيف يختار.

ولهذا فإن الطفل الذي تربي على الخوف قد يكبر وهو عاجز عن اتخاذ قراراته. وعاجز عن التعبير عن رأيه.

وعاجز عن الدفاع عن نفسه.

ليس لأنه ضعيف بطبيعته. بل لأنه تعلم مبكرًا أن الأمان في الصمت.

وأن الاختلاف مكلف.

وأن التعبير عن النفس خطر.

والمفارقة المؤلمة أن كثيرًا من الآباء كانوا يريدون العكس تمامًا. كانوا يريدون أبناء أقوياء. وواثقين.

وقادرين على مواجهة الحياة. لكن الوسيلة التي استخدموها صنعت شيئًا مختلفًا.

صنعت الطاعة بدل الثقة.

والخوف بدل الاحترام. والانكسار بدل القوة.

فالإنسان لا يحتاج إلى أن يخافك حتى يحترمك. بل غالبًا كلما ازداد الخوف...

قل الاحترام الحقيقي.

لأن الاحترام ينمو من الثقة. ومن العدالة.

ومن الشعور بالأمان.

أما الخوف فينمو من التهديد. ومن عدم اليقين.

ومن توقع الأذى.

ولهذا فإن أقوى الأشخاص ليسوا أولئك الذين يخافهم الناس. بل أولئك الذين يشعر الناس بالأمان معهم.
الأب الذي يستطيع ابنه أن يعترف له بخطئه.

والأم التي تستطيع ابنتها أن تخبرها بالحقيقة دون رعب. والزوج الذي يستطيع زوجته أن تختلف معه
دون خوف.

والمدير الذي يستطيع موظفوه أن يناقشوه دون قلق.
هؤلاء يملكون نوعاً من القوة أعمق بكثير من السيطرة.

لكن المشكلة أن القسوة تملك ميزة مغرية. إنها سريعة.
تعطي نتائج فورية.

تجبر الناس على الطاعة بسرعة. وتفرض النظام بسرعة.
وتمنح صاحبها شعوراً بالقوة.

أما الاحترام الحقيقي فيحتاج وقتاً. وصبراً.
وثباتاً.

ولهذا يختار كثير من الناس الطريق الأسرع. دون أن يدركوا الثمن الذي سيدفع لاحقاً.

فكل خوف نزرعه في شخص اليوم... قد يتحول غداً إلى جرح.
وكل جرح لا يُفهم ولا يُعالج...

قد يتحول يوماً ما إلى قسوة جديدة. وهكذا تبدأ سلسلة طويلة.
سلسلة لا تنتقل فيها القسوة من شخص إلى آخر فقط...

بل من جيل إلى جيل.

الندوب التي تنتقل من جيل إلى جيل

هناك أشياء كثيرة يمكن أن يرثها الأبناء من آبائهم. الملامح.
والأسماء.

والعادات. لكن هناك أشياء أخرى تنتقل بصمت.

لا تُكتب في الأوراق.

ولا تظهر في الصور. تنتقل من جيل إلى جيل.
وكأنها إرث خفي لا يراه أحد.
ومن أخطر هذه الأشياء... القسوة.

في كثير من الأحيان لا يقرر الإنسان أن يكون قاسيًا. بل يتعلم القسوة قبل أن يفهمها.
يتعلمها وهو طفل.
وهو يراقب. ويستمع.
وتصبح جزءًا من فهمه الطبيعي للحياة.

هناك أب يصرخ في ابنه. لأنه تربي على الصراخ.
وهناك أم تستخدم الذنب والخوف.
لأنها لم تعرف وسيلة أخرى. وهناك زوج يعتقد أن السيطرة دليل حب.
لأنه لم ير نموذجًا مختلفًا.
وهناك زوجة تستخدم الإهانة أثناء الخلاف. لأنها عاشت سنوات تسمع الإهانة وكأنها لغة طبيعية.
وفي كل مرة يظن الإنسان أنه يتصرف بطريقة الخاصة.
بينما هو في الحقيقة يعيد تمثيل مشهد قديم.

ولهذا فإن كثيرًا من البشر يقضون نصف حياتهم يشكون مما تعرضوا له. ثم يقضون النصف الآخر في إعادة إنتاجه دون أن يشعروا.
الأب الذي كره قسوة أبيه.
يصبح أبًا قاسيًا. والأم التي بكت بسبب الخوف.
تربي أبناءها بالخوف.
والطفل الذي عاش تحت السيطرة. يكبر باحثًا عن السيطرة.
ليس لأنه شرير.
بل لأنه اعتاد أن يرى الحياة بهذه الصورة.

فالإنسان لا يرث الجراح فقط. بل يرث أحياناً طريقة التعامل معها.
وهنا تكمن المشكلة.

لأن الألم الذي لا يفهم يتحول إلى سلوك. والسلوك المتكرر يتحول إلى عادة.
والعادة تتحول إلى شخصية.
ثم تبدأ الشخصية في تشكيل الجيل التالي.

ولهذا نجد أحياناً عائلات كاملة تعيش النمط نفسه. الخوف نفسه.
والقسوة نفسها.

والصمت نفسه. مع اختلاف الأسماء والوجوه فقط.
وكان الزمن يتحرك.
لكن القصة لا تتحرك معه.

وهناك لحظة مؤلمة يمر بها كثير من الناس. لحظة يكتشف فيها الإنسان أنه أصبح يشبه الشخص الذي
أقسم يوماً أنه لن يشبهه.

يسمع كلمات تخرج من فمه.

فيتذكر أباه. أو أمه.

ويرى ردود أفعاله.

فيتذكر ما كان يكرهه قديماً. ويشعر للحظة أن الماضي عاد للحياة داخله.

هذه اللحظة قاسية.

لكنها مهمة. لأنها أول لحظة يرى فيها الإنسان السلسلة.

فالمشكلة ليست أن الإنسان يشبه والديه أحياناً. فهذا طبيعي.

المشكلة أن يفعل ذلك دون وعي.

دون أن يراجع. دون أن يختار.

دون أن يسأل نفسه:

هل ما أفعله صحيح فعلاً؟ أم أنه فقط ما تعلمته؟

وهنا يبدأ التحرر الحقيقي. ليس عندما نلوم الماضي.

ولا عندما ننكر أثره.

بل عندما نراه بوضوح. حين يفهم الإنسان أن الجرح الذي تعرض له لا يجب أن يصبح جرحًا جديدًا.

وأن القسوة التي عاشها لا يجب أن تتحول إلى ميراث.

وأن الألم الذي عرفه لا يجب أن ينتقل إلى شخص آخر.

فالإنسان لا يختار دائمًا ما حدث له. لكنه يملك قدرة أعظم.

يملك أن يختار ما سيفعله بما حدث له.

وهذا هو الفرق بين من يكرر السلسلة... ومن يقطعها.

فالابن الذي تعرض للخوف يستطيع أن يربي أبنائه على الأمان. والأب الذي عاش القسوة يستطيع أن يتعلم الرحمة.

والزوجة التي عاشت الإهانة تستطيع أن تختار الاحترام.

والزوج الذي عرف السيطرة يستطيع أن يتعلم الثقة. ليس لأن الأمر سهل.

بل لأنه ممكن.

ولهذا فإن أعظم انتصار لا يكون على الآخرين. بل على السلسلة نفسها.

على تلك الحلقة التي استمرت سنوات طويلة.

وربما أجيالاً طويلة. ثم توقفت عند شخص قرر أن يكون مختلفًا.

شخص قرر أن الألم الذي عاشه...

لن يعيش في أبنائه. وأن الخوف الذي عرفه...

لن يصبح لغة بيته.

وأن القسوة التي جرحته... لن تكون هديته للجيل القادم.

لكن يبقى سؤال أخير. إذا كانت القسوة تنتقل بهذه السهولة...

وإذا كانت السيطرة تمنح شعورًا سريعًا بالقوة...

وإذا كان الخوف يفرض الطاعة أسرع من الاحترام... فلماذا يختار بعض الناس الرحمة؟

وما الذي يجعل الرحمة قوة وليست ضعفًا؟

هذا ما سنراه في الجزء الأخير من هذا الفصل.

القوة التي لا تحتاج إلى قسوة

من السهل أن يبدو الإنسان قويًا عندما يملك السلطة. ومن السهل أن يبدو قويًا عندما يخافه الآخرون.

ومن السهل أن يفرض الطاعة بالقسوة.

لكن هذه ليست أصعب أنواع القوة. بل ربما تكون أسهلها.

فالقسوة تمنح نتائج سريعة. الأب القاسي يحصل على الصمت بسرعة.

والمدير القاسي يحصل على الطاعة بسرعة.

والزوج المتحكم يحصل على الانصياع بسرعة. والأم التي تعتمد على الخوف تحصل على الاستجابة بسرعة.

ولهذا تبدو القسوة مغرية.

فهي تعطي إحساسًا فوريًا بالسيطرة. وتمنح صاحبها شعورًا بأنه يمسك كل شيء بيده.

لكن المشكلة أن القسوة تستطيع أن تفرض السلوك. ولا تستطيع أن تفرض القناعة.

تستطيع أن تجعل الإنسان يصمت.

لكنها لا تستطيع أن تجعله يقتنع. وتستطيع أن تمنعه من الخطأ أمامك.

لكنها لا تعلمه لماذا يجب أن يتجنب الخطأ عندما لا تكون موجودًا.

ولهذا فإن القسوة غالبًا تسيطر على الظاهر. أما الرحمة فتبني الداخل.

والفرق بينهما يظهر متأخرًا.

لكنه يظهر دائمًا.

فالطفل الذي تربي على الخوف يتعلم كيف يتجنب العقاب. أما الطفل الذي تربي على الفهم فيتعلم كيف يفكر.

والفرق بين الاثنين هائل.

الأول ينتظر من يراقبه. والثاني يراقب نفسه.

الأول يحتاج إلى سلطة فوقه دائماً.

أما الثاني فقد بنى داخله ما هو أهم من السلطة. بنى الضمير.

ولهذا فإن الرحمة ليست عكس الحزم. كما يظن كثير من الناس.

وليست استسلاماً.

وليست ضعفاً. فالرحمة الحقيقية تحتاج قوة أكبر بكثير من القسوة.

من السهل أن تصرخ عندما تغضب. لكن من الصعب أن تسيطر على غضبك.

ومن السهل أن تجرح عندما تتألم.

لكن من الصعب أن تمنع ألمك من التحول إلى أذى. ومن السهل أن تفرض رأيك بالقوة.

لكن من الصعب أن تقنع الآخرين به.

ولهذا فإن القوة الحقيقية ليست في القدرة على السيطرة. بل في القدرة على ضبط النفس.

الأب القوي ليس الذي يخشاه أبنائه. بل الذي يشعرون بالأمان معه.

والأم القوية ليست التي تستطيع إخضاع الجميع.

بل التي تستطيع بناء الثقة داخل بيتها. والزوج القوي ليس الذي يفرض كلمته الأخيرة دائماً.

بل الذي يستطيع الاستماع دون أن يشعر أن كرامته مهددة.

والزوجة القوية ليست التي تنتصر في كل خلاف. بل التي تعرف كيف تحافظ على الاحترام حتى وهي غاضبة.

ولهذا فإن بعض الناس يخلطون بين الهيبة والخوف. وبين القوة والسيطرة.

وبين الاحترام والطاعة.

لكن هذه الأشياء ليست واحدة. فالخوف يختفي عندما تختفي السلطة.

أما الاحترام فيبقى.

والسيطرة تحتاج جهدًا دائمًا. أما الثقة فتعيش وحدها.

والطاعة قد تُفرض.

أما المحبة فلا تُفرض أبدًا.

وفي النهاية يكتشف الإنسان حقيقة مهمة جدًا. أن القسوة تستطيع أن تكسب المعركة.

لكنها كثيرًا ما تخسر الإنسان.

قد تكسب الطاعة. لكنها تخسر القرب.

وقد تكسب الصمت.

لكنها تخسر الصدق. وقد تكسب السيطرة.

لكنها تخسر الثقة.

ولهذا فإن السؤال الذي يجب أن يطرحه كل إنسان على نفسه ليس: هل أستطيع أن أجعل الآخرين يفعلون ما أريد؟

بل:

ماذا أخسر وأنا أفعل ذلك؟ هل أبني إنسانًا؟

أم أبني خوفًا؟

هل أزرع فهمًا؟ أم أزرع طاعة مؤقتة؟

هل أترك أثرًا من الأمان؟

أم أترك أثرًا من الندوب؟

فليست كل قسوة قوة. وليست كل رحمة ضعفًا.

وأحيانًا يكون الإنسان في أقوى لحظاته...

حين يختار ألا يؤذي رغم أنه قادر. وحين يختار أن يفهم رغم أنه يستطيع أن يفرض.

وحين يختار أن يرحم رغم أن القسوة أسهل.

وفي نهاية هذا الفصل نكتشف أن القسوة نادرًا ما تبدأ من الكراهية. بل تبدأ غالبًا من اقتناع عميق بأنها ضرورية.

وأنها مفيدة.

وأنها الطريق الصحيح. لكن النوايا وحدها لا تمنع الجراح.

كما أن الحب وحده لا يجعل الأذى أقل ألمًا.

ولهذا يبقى الإنسان مطالبًا بسؤال نفسه دائمًا: هل ما أفعله يبني من أمامي...

أم يكسره باسم المصلحة؟

وهذا السؤال يقودنا إلى فصل جديد. فإذا كانت القسوة تبدأ عندما ننسى إنسانية من أمامنا...

فإن الخطوة التالية أكثر خطورة.

الخطوة التي يبدأ فيها البشر بتقسيم العالم إلى فريقين:

نحن... وهم.

الفصل السابع

نحن وهم الإنسان الذي اختفى



الفصل السابع

نحن وهم

الإنسان الذي اختفى

حين يولد الإنسان لا يعرف شيئاً عن التصنيفات. لا يعرف من ينتمي إلى جماعته. ولا من ينتمي إلى جماعة أخرى. ولا يعرف معنى الطبقات. ولا الأحزاب. كل ما يعرفه أنه يرى وجهًا فيبتسم. وصوتًا فيلتفت. ويدًا تمتد إليه فيمسكها. في البداية يكون الإنسان إنسانًا فقط. ثم يبدأ العالم في تعليمه شيئًا آخر.

يتعلم الأسماء. ثم الصفات.

ثم التصنيفات.

ثم يبدأ الناس بالاختفاء خلف الكلمات. هذا غني.

وهذا فقير.

وهذا متعلم. وهكذا شيئًا فشيئًا يبدأ الإنسان في رؤية العناوين قبل أن يرى البشر.

في البداية يبدو الأمر طبيعيًا. فنحن بحاجة إلى الكلمات لفهم العالم.

وبحاجة إلى التصنيفات لترتيب الأشياء.

لكن المشكلة تبدأ عندما تحل الكلمة محل الإنسان. وعندما يصبح العنوان أهم من الوجه.

وعندما تختفي القصة خلف الصفة.

حين يختلف زوج مع زوجته لفترة طويلة، قد يتوقف عن رؤيتها كما كانت. لم تعد المرأة التي أحبها.

ولم تعد الإنسان الذي شاركته أحلامه.

بل تصبح في عقله شيئًا آخر. "مصدر المشاكل."

"سبب التوتر."

"العقبة." وفي اللحظة التي تتحول فيها إلى هذه الكلمات...
يبدأ جزء من إنسانيتها بالاختفاء.
على الأقل داخل نظره إليها.

والزوجة قد تفعل الشيء نفسه. في البداية ترى إنسانًا.
ثم ترى مجموعة أخطاء.
ثم ترى عنوانًا واحدًا يختصر كل شيء. "الأناني."
"المهمل."
"القاسي." ومع الوقت لا تعود ترى ما وراء الكلمة.
فتختفي التفاصيل.
وتختفي التعقيدات. ويختفي الإنسان.

والأمر نفسه يحدث بين الآباء والأبناء. قد يتحول الابن في نظر أبيه إلى:
"المتنرد."
أو: "العاق."
ويبدأ الأب في تفسير كل شيء من خلال هذا العنوان.
وكلما فعل الابن شيئًا جديدًا عاد الأب إلى التفسير نفسه. ليس لأنه يرى الحقيقة كاملة.
بل لأنه لم يعد يرى إلا الكلمة.

وهناك ابن يفعل الأمر ذاته. يتحول الأب في نظره إلى:
"الظالم."
أو: "المتحكم."
أو:
"سبب تعاستي." ثم يبدأ كل شيء بالدوران حول هذه الصورة.
وكل موقف جديد يصبح دليلًا إضافيًا عليها.

وكل ذكرى قديمة تُستدعى لتؤكد لها. وفي النهاية يختفي الأب الحقيقي.
ويبقى الأب الذي صنعه الغضب داخل الذاكرة.

وهذه ليست مشكلة العلاقات فقط. بل مشكلة البشر كلها.
فالإنسان يجد راحة كبيرة في الاختصار.
والعقل يحب التصنيفات السريعة. لأنها توفر عليه الجهد.
أسهل أن تقول:

"هذا شخص سيئ." من أن تحاول فهمه.

وأسهل أن تقول:

"هذا إنسان جاهل." من أن تعرف قصته.

وأسهل أن تضع شخصاً كاملاً داخل كلمة واحدة...

من أن تعترف أنه أكثر تعقيداً مما تتخيل.

لكن كل مرة نفعل ذلك... يختفي إنسان.

ليس من الواقع.

بل من داخل وعينا. فالشخص الذي كان يملك قصة.

وخوفاً.

وأحلاماً. يتحول فجأة إلى عنوان.

وكان حياته كلها يمكن اختصارها في كلمة.

ولهذا فإن كثيراً من الظلم لا يبدأ بالكراهية. بل يبدأ بالاختصار.

حين نختصر الإنسان في خطأ.

أو في فكرة. أو في موقف.

وننسى أن البشر أكبر من الكلمات التي نصفهم بها.

فالزوج ليس مجرد خطئه. والزوجة ليست مجرد خطئها.
والأب ليس مجرد قسوته.
كما أن الإنسان ليس أسوأ شيء فعله في حياته. ولا أفضل شيء فعله في حياته.
إنه دائماً أكثر تعقيداً من ذلك.
لكن الاعتراف بهذا التعقيد يحتاج جهداً. أما التصنيف فيحتاج كلمة واحدة فقط.

ولهذا يبدأ اختفاء الإنسان دائماً بطريقة بسيطة جداً. لا يبدأ بالعنف.
ولا يبدأ بالكراهية.

بل يبدأ حين نتوقف عن رؤية الوجه... ونبدأ في رؤية الملصق المعلق عليه.
وحين يحدث ذلك يصبح الانتقال إلى الخطوة التالية أسهل بكثير.
الخطوة التي قسمت البشر عبر التاريخ إلى معسكرين فقط:
نحن... وهم.

نحن وهم

لا توجد عبارة قصيرة تسببت في أذى للبشر بقدر ما تسببت به هذه العبارة. نحن وهم.
كلمتان فقط.
لكن خلفهما حروب. وخصومات.
وكراهية.
وملايين القصص التي انتهت بأشخاص لم يعودوا يرون بعضهم كبشر.

في البداية لا يبدو الأمر خطيراً. فكل إنسان ينتمي إلى شيء ما.
إلى عائلة.
أو مدينة. أو مجتمع.
فالانتماء جزء من الطبيعة البشرية.
والإنسان يحتاج أن يشعر أنه جزء من مجموعة أكبر منه. لكن المشكلة لا تبدأ عند كلمة "نحن".
بل عند كلمة "هم".

حين تكون "نحن" مجرد انتماء، لا توجد مشكلة. لكن حين تصبح "نحن" أفضل من الجميع...
تبدأ المشكلة.

وحين تصبح "هم" أقل قيمة... تكبر المشكلة.

وحين تصبح "هم" مصدر الخطر كله...

تبدأ الكارثة.

فالإنسان بطبيعته يميل إلى رؤية جماعته بصورة أجمل. يرى أخطاءها أقل.
ويفهم ظروفها أكثر.

ويبحث لها عن الأعذار. بينما يفعل العكس مع الآخرين.

يرى أخطاءهم بوضوح.

ويشك في نواياهم. ويفسر أفعالهم بأسوأ صورة ممكنة.

ولهذا فإن الزوج حين يغضب من زوجته لا يعود يرى كل شيء فيها. بل يرى أخطاءها أكثر.
أما أخطاؤه هو فتبدو أصغر.

والزوجة تفعل الشيء نفسه. فكل طرف يصبح محامي نفسه...

وقاضي الطرف الآخر.

وفي الخلافات العائلية يحدث الأمر ذاته. قد تنقسم الأسرة إلى معسكرين.

ثم يبدأ كل طرف في جمع الأدلة ضد الآخر.

وتبدأ الذكريات في التغير. فكل موقف قديم يُعاد تفسيره.

وكل كلمة تُفهم بطريقة مختلفة.

حتى يصبح أفراد الأسرة الواحدة وكأنهم عاشوا حياتين مختلفتين. مع أنهم عاشوا القصة نفسها.

وهذا لأن الإنسان لا يرى الواقع دائماً كما هو. بل كما يخدم الرواية التي يؤمن بها.

وحين تنقسم الرواية إلى "نحن" و"هم..."
يبدأ كل شيء في التغير.

فـ"نحن" أصحاب النوايا الحسنة. أما "هم" فلديهم أهداف خفية.
"نحن" نخطئ لأن الظروف أجبرتنا.
أما "هم" فيخطئون لأنهم سيئون. "نحن" ندافع عن أنفسنا.
أما "هم" فيعتدون علينا.
وهكذا يصبح الميزان مختلفًا تمامًا.

وكلما ازداد تعلق الإنسان بجماعته... ازدادت صعوبة رؤية الحقيقة كاملة.
ليس لأنه يكذب بالضرورة.
بل لأنه يحب الانتماء. ويخاف أن يفقده.
ويخاف أكثر أن يكتشف أن جماعته ليست كما تصور.

ولهذا فإن أكثر الأفكار خطورة ليست: "أنا على حق."
بل:

"نحن على حق دائمًا." لأن الفرد قد يراجع نفسه.
أما الجماعة فتمنحه شعورًا هائلًا باليقين.
شعورًا يجعل الخطأ يبدو مستحيلًا.

ومن هنا تبدأ المسافة النفسية بالاتساع. مسافة صغيرة في البداية.
ثم تكبر.

ثم تكبر أكثر. حتى يصل الإنسان إلى مرحلة لا يعود يرى فيها الطرف الآخر كشخص يشبهه.
بل كعضو في معسكر آخر.
وفى هذه اللحظة يبدأ شيء مهم جدًا بالاختفاء.

شيء اسمه التعاطف.

فكلما اقترب الإنسان منك، أصبح من الصعب إيذاؤه. وكلما ابتعد عنك، أصبح الأمر أسهل. ولهذا فإن الخطوة التالية لا تكون الكراهية مباشرة. بل شيء أكثر هدوءًا. وأكثر خطورة. أن يتحول الإنسان من وجه وقصة وحياة كاملة... إلى مجرد رقم.

عندما يصبح الآخر رقمًا

من الصعب على الإنسان أن يؤدي شخصًا يعرفه جيدًا. شخصًا يعرف اسمه. ويعرف صوته. ويعرف خوفه. كلما اقتربنا من إنسان ما، أصبحت معاناته أكثر واقعية. وأصبح تجاهلها أصعب. ولهذا فإن المسافة ليست مجرد أمتار. بل حالة نفسية.

حين ترى طفلًا يبكي أمامك، فإنك تتأثر. لكن عندما تسمع أن آلاف الأطفال يبكون في مكان بعيد، يصبح التأثير مختلفًا. ليس لأنك قاسٍ. بل لأن العقل البشري لا يتعامل مع الأرقام كما يتعامل مع الوجوه. فالوجه إنسان. أما الرقم فمعلومة. والفرق بينهما هائل.

ولهذا فإن كثيرًا من الناس يتعاطفون مع قصة واحدة أكثر مما يتعاطفون مع ألف قصة. قد تهزهم حكاية شخص واحد. لكنهم يمرون أمام أعداد ضخمة دون الشعور نفسه. لأن الإنسان بطبيعته يرى الفرد. أما الأعداد الكبيرة فتبدأ بالتحول إلى شيء مجرد.

شيء لا يملك ملامح.

ولا صوتًا. ولا اسمًا.

والأمر لا يحدث في الحروب فقط. بل في الحياة اليومية أيضًا.

هناك مدير ينظر إلى موظفيه كأرقام إنتاج.

وإحصاءات. ونسب إنجاز.

ولا يعود يرى البشر خلف هذه الأرقام.

لا يرى الأب الذي يحاول إعالة أسرته. ولا الأم التي تعود متعبة إلى أطفالها.

ولا الشاب الذي يخاف على مستقبله.

يرى نتائج فقط. ولهذا تصبح القرارات أسهل.

وهناك طبيب قد ينسى أحيانًا أن المريض ليس حالة طبية فقط. وهناك معلم قد ينسى أن الطالب ليس درجة في كشف العلامات فقط.

وهناك أب قد ينسى أن ابنه ليس مشروعًا يريد أن ينجح بأي ثمن.

حين يحدث ذلك يبدأ الإنسان بالاختفاء. ويبقى الدور فقط.

ولهذا كثيرًا ما نسمع كلمات مثل: "الموظفون".

"الطلاب".

"المهاجرون." "الأغنياء."

"الفقراء".

"السياسيون." "الرجال."

"النساء".

في البداية تبدو كلمات عادية. لكنها تحمل خطرًا خفيًا.

فكلما استخدمنا مجموعة كبيرة كوحدة واحدة...

اختفت الفروق بين أفرادها. واختفت القصص.

واختفت الوجوه.

فالإنسان لا يكره أحمد بسهولة. ولا يكره محمد بسهولة.

ولا يكره فاطمة بسهولة.

لأن أحمد ومحمد وفاطمة يملكون وجوهاً. وأصواتاً.

وقصصاً.

لكن من السهل أن يكره فئة كاملة. أو جماعة كاملة.

أو شعباً كاملاً.

لأن العقل لم يعد يرى الأشخاص. بل يرى عنواناً عامّاً فقط.

وهذا ما يجعل الظلم ممكناً. فالظلم الكبير لا يبدأ عادة تجاه شخص نراه بوضوح.

بل تجاه أشخاص لم نعد نراهم أصلاً.

أشخاص اختفوا خلف الكلمات. وخلف التصنيفات.

وخلف الأرقام.

وحين يصل الإنسان إلى هذه المرحلة يصبح التعاطف أضعف. لا لأنه ولد بلا رحمة.

بل لأنه لم يعد يرى من يتألم.

يرى مجموعة. أو فئة.

أو عنواناً.

أما الإنسان الحقيقي فقد اختفى من الصورة.

ولهذا فإن أول خطوة نحو الرحمة ليست أن نحب الجميع. ولا أن نتفق مع الجميع.

بل أن نراهم.

أن نرى أنهم بشر. لهم مخاوفهم.

وأخطاؤهم.

وأحلامهم. مثلنا تماماً.

لكن التاريخ يعلمنا أن البشر لا يتوقفون دائماً عند مرحلة الأرقام. فهناك مرحلة أخطر.
مرحلة لا يختفي فيها الإنسان فقط...

بل تُسلب منه إنسانيته نفسها. وحينها لا يعود الآخر مجرد رقم.
بل يصبح شيئاً أقل من إنسان.

ومن هنا تبدأ أخطر آلية نفسية عرفها البشر عبر التاريخ:

نزع الإنسانية

نزع الإنسانية

إذا كان تحويل الإنسان إلى رقم يجعل إيذائه أسهل... فإن نزع إنسانيته يجعل إيذائه طبيعياً.
وهنا نصل إلى واحدة من أخطر الآليات النفسية التي عرفها البشر.
آلية تكررت عبر التاريخ مرات لا تحصى. وفي كل مرة كانت النتيجة تقريباً واحدة.
زيادة الألم.

وزيادة الظلم. وزيادة قدرة الإنسان على فعل أشياء لم يكن يتخيل أنه قادر على فعلها.

في البداية يكون الآخر إنساناً. ثم يصبح خصماً.

ثم يصبح مشكلة.

شيء صغير في الظاهر. لكنه هائل في أثره.

يتوقف الإنسان عن رؤيته كإنسان.

وحين يتوقف ذلك لا يعود الألم الذي يشعر به مهماً. ولا يعود خوفه مهماً.

ولا يعود بكاؤه مهماً.

لأن الإنسان بطبيعته يجد صعوبة في التعاطف مع من لا يراه إنساناً مثله.

حين يغضب زوج من زوجته قد يبدأ بوصفها بأوصاف قاسية. وفي البداية تكون مجرد كلمات.

لكن الكلمات ليست بريئة دائماً.

فكل كلمة تزيل شيئاً من إنسانية الطرف الآخر. وكل وصف مختزل يجعل رؤيته أكثر ضيقاً.
حتى يصبح من السهل تجاهل مشاعره.
والاستخفاف بألمه. وتبرير إيذائه.

والزوجة قد تفعل الشيء نفسه. قد يتحول الزوج من إنسان له نقاط قوة وضعف إلى وصف واحد.
"أناني".

أو "عديم المشاعر". أو "فاشل".
ثم تبدأ كل أفعاله بالتفسير من خلال هذا الوصف.
وكما تكرر ذلك... اختفى الإنسان الحقيقي أكثر.

وهذا ما يحدث أيضاً في الخلافات العائلية. فالأخ لا يعود أخاً.
بل يصبح المشكلة.
والأب لا يعود أباً. تبدأ الإنسانية بالتراجع.

لكن على مستوى الجماعات تصبح النتائج أكبر بكثير. فعندما يريد البشر تبرير ظلم جماعة أخرى...
فإن أول ما يفعلونه غالباً ليس مهاجمتها.
بل إعادة تعريفها. إعادة وصفها.
إعادة تقديمها للعالم بطريقة تجعل التعاطف معها أصعب.

فهي ليست بشراً مثلنا. هي أقل فهماً.
أقل أخلاقاً.
أقل قيمة. أقل استحقاقاً.
وهكذا يبدأ السلم الطويل المؤدي إلى الظلم.
ليس بالفعل. بل بالفكرة التي تسبق الفعل.

ولهذا فإن كل أشكال الاضطهاد الكبرى تقريباً بدأت باللغة. قبل القوانين.

وقبل العقوبات.

وقبل العنف. كانت هناك كلمات.

كلمات أعادت تعريف البشر.

وجعلتهم يبدون أقل إنسانية. وأقل استحقاقًا للرحمة.

فالإنسان لا يحتاج إلى تدمير ضميره بالكامل كي يؤذي الآخرين. يكفي أحيانًا أن يقنع نفسه أنهم لا يشبهونه.

وأنهم مختلفون عنه جذريًا.

وأن معاناتهم ليست كمعاناته. ممكنًا.

ولهذا فإن أكثر الجمل خطورة ليست: "أنا أكرههم."

بل:

"هم ليسوا مثلنا." لأن هذه الجملة تفتح الباب لكل ما يأتي بعدها.

وتسمح للعقل بأن يتوقف عن رؤية المشتركات.

ويركز فقط على الفروق. ويبالغ في الفروق.

حتى تبدو وكأنها تفصل بين نوعين مختلفين من البشر.

مع أنهم في النهاية بشر متشابهون أكثر مما يظنون.

فكل إنسان تخاف منه... يعرف الخوف.

وكل إنسان تغضب منه...

يعرف الألم. وكل إنسان تختلف معه...

يحلم.

ويخسر. ويحب.

مثلما تفعل أنت تمامًا.

لكننا ننسى ذلك بسهولة عندما يحتدم الخلاف. وعندما تسيطر الهوية.

وعندما تصبح الجماعة أهم من الإنسان.

ولهذا فإن أول خطوة نحو أي ظلم كبير ليست القسوة. وليست الكراهية.
وليست العنف.

أن الطرف الآخر إنسان. وحين تُنسى هذه الحقيقة...
يصبح كل شيء بعدها أسهل.

لكن رغم ذلك يبقى هناك أمل. لأن الإنسان قادر أيضًا على عكس العملية كلها.
قادر على أن يرى الوجوه من جديد.
وقادر على أن يرى القصص خلف التصنيفات. وقادر على أن يتذكر أن الكلمات لا تختصر البشر.
وأن العناوين لا تشرحهم.
وأن كل إنسان يقابله... أكبر بكثير من الفكرة التي يحملها عنه.
وهنا نصل إلى المحطة الأخيرة في هذا الفصل.
المحطة التي تعيد الإنسان إلى نقطة البداية. إلى الوجوه التي تشبهه أكثر مما كان يظن.

الوجوه التي تشبهنا

في نهاية كل خلاف كبير... وفي نهاية كل انقسام...
وفي نهاية كل كراهية...
يبقى هناك شيء واحد لا يتغير. شيء يحاول البشر نسيانه باستمرار.
ثم يكتشفونه من جديد.
نحن متشابهن أكثر مما نظن.

نقضي سنوات نركز على الاختلافات. هذا مختلف عني.
وذاك لا يشبهني.
وهؤلاء ليسوا مثلنا. ثم تأتي لحظة نرى فيها شيئًا آخر.
نرى الخوف نفسه.
والحزن نفسه. والحب نفسه.

وندرک أن ما یجمع البشر أكبر بكثير مما یفرقهم.

فالابن الذي یغضب من أبیه... یرید فی النهایة شیئاً بسیطاً.

أن یفهم.

والأب الذي یقسو على ابنه... یرید فی أعماقه شیئاً بسیطاً أيضاً.

أن یطمئن علیه.

وقد تختلف الوسائل. وقد تحدث الأخطاء.

لكن خلف كل ذلك توجد احتياجات بشرية متشابهة.

والزوج الذي یبتعد أحياناً... قد یكون خائفاً أكثر مما یبدو.

والزوجة التي تغضب كثيراً...

قد تكون مجروحة أكثر مما تعترف. والإنسان الذي یهاجم الآخرين...

قد یكون فی داخله ألم لا یعرف کیف یعبر عنه.

لیس دائماً. لكن أكثر مما نتخیل.

وهذا لا یعني تبریر الأخطاء. ولا یعني أن كل الناس أبرياء.

ولا یعني أن الظلم غیر موجود.

بل یعني شیئاً أكثر تواضعاً. أن البشر أكثر تعقيداً من أحكامنا السريعة.

وأکبر من التصنيفات التي نضعهم فیها.

وأعمق من الكلمات التي نصفهم بها.

حين ترى إنساناً من بعيد... قد یبدو لك شیئاً واحداً.

لكن عندما تقترب منه...

تكتشف حياة كاملة. طفولة.

وذكریات.

وخسارات. أصبحت الأحكام أصعب.
وأصبح التعاطف أسهل.

وربما لهذا السبب نجد أن أكثر الناس رحمة ليسوا دائماً أكثر الناس طيبة. بل أكثرهم فهمًا.
الذين رأوا ضعفهم.

ورأوا أخطاءهم. ورأوا كيف يمكن للإنسان أن يسقط.
ولهذا أصبحوا أقل قسوة في أحكامهم على الآخرين.

فمن يعرف نفسه جيدًا... يصعب عليه أن يؤمن أنه مختلف جوهريًا عن بقية البشر.
يعرف أنه قادر على الخير.

وقادر على الخطأ. وقادر على الرحمة.
ويعرف أن الخط الفاصل بين هذه الأشياء أرق بكثير مما نحب أن نعتقد.

ولهذا فإن أخطر فكرة ليست أن الآخرين سيئون. بل أن الآخرين مختلفون عنا تمامًا.
ففي اللحظة التي نؤمن فيها بذلك...

نبدأ بفقدان القدرة على فهمهم. ثم نفقد القدرة على التعاطف معهم.
ثم يصبح إيذاؤهم أسهل.

أما حين نتذكر أنهم يشبهوننا... فإن شيئًا داخلنا يقاوم.
يقاوم القسوة.

ويقف في وجه الكراهية. ويمنعنا من السقوط الكامل في وهم "نحن" و"هم".

وفي نهاية هذا الفصل لا نصل إلى نتيجة مريحة. بل إلى حقيقة مزعجة.
أن الشر لا يبدأ دائمًا من الرغبة في الإيذاء.

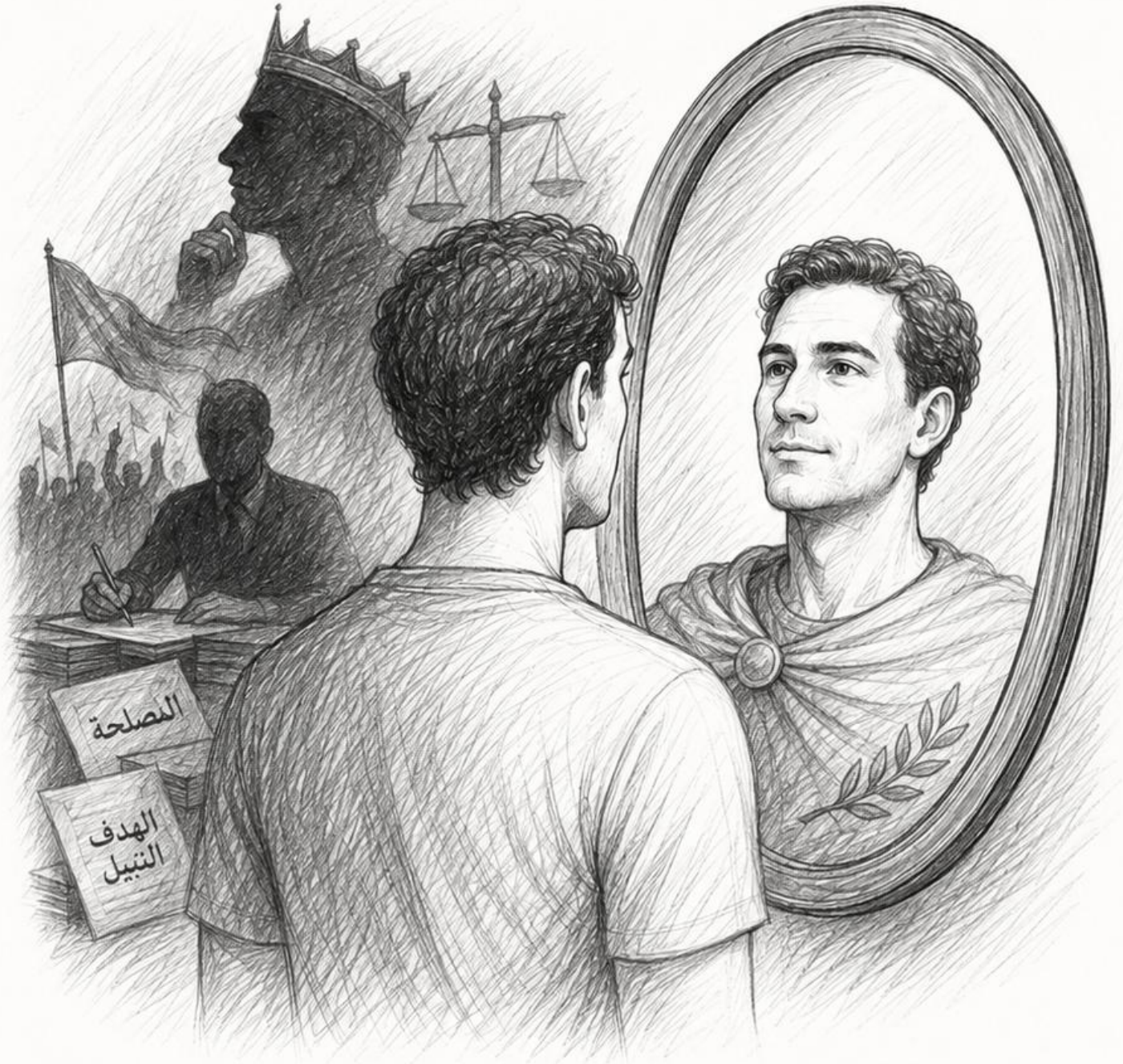
بل قد يبدأ من التوقف عن رؤية إنسانية الآخر. من كلمة.
ثم تصنيف.

لكن ما دام الإنسان قادرًا على رؤية الوجه خلف الفكرة... والقصة خلف التصنيف...
والإنسان خلف الجماعة...
فإن الأمل يبقى موجودًا. لأن كل طريق يؤدي إلى الكراهية يبدأ بنسيان إنسانية الآخر.
وكل طريق يؤدي إلى الرحمة يبدأ بتذكرها.

الفصل الثامن

القاتل الذي أنقذ وطنه

باسم المصلحة



الفصل الثامن

القاتل الذي أنقذ وطنه

باسم المصلحة

نادراً ما يبدأ الأذى بعباراة: "أريد أن أؤذيك".
هذه ليست الطريقة التي يعمل بها معظم البشر.
فالإنسان يحتاج دائماً إلى قصة. إلى تفسير.
إلى معنى يجعل ما يفعله مقبولاً في نظر نفسه.
ولهذا فإن كثيراً من الأذى يبدأ بجملة مختلفة تماماً: "أنا أفعل هذا لمصلحتك".

الأب الذي يحطم ثقة ابنه بنفسه لا يقول: "أريد أن أجرحه".
بل يقول:

"أريد أن أجعله أقوى." والزوج الذي يفرض سيطرته على زوجته لا يقول:
"أريد أن أتحكم بها".

بل يقول: "أريد حمايتها".
والزوجة التي تستخدم الإهانة المستمرة لا تقول:
"أريد أن أؤذيه." بل تقول:
"أريد أن يتغير".

وفي كل مرة يكون هناك أذى حقيقي. لكن هناك أيضاً قصة تجعل ذلك الأذى يبدو منطقيًا.

وهذه هي المشكلة. فالإنسان لا يحتاج إلى تبرير الخير.
لكنه يحتاج دائماً إلى تبرير الشر.

ولهذا لا يبحث عن طريقة يرى بها نفسه سيئاً. بل عن طريقة يرى بها نفسه صالحاً رغم ما يفعل.

في الفصول السابقة رأينا كيف يخدع الإنسان نفسه. وكيف يبرر أخطاءه.

وكيف يقسم العالم إلى "نحن" و"هم".

والآن نرى النتيجة الطبيعية لكل ذلك. حين يصبح الأذى نفسه عملاً أخلاقياً في نظر صاحبه.

هناك مدير يقسو على موظفيه يوميًا. يضغط عليهم.
ويهينهم أحيانًا.
ويرهقهم. وحين يُسأل عن السبب لا يتحدث عن السلطة.
ولا عن السيطرة.
بل عن النجاح. وكأن الألم الذي يصنعه أصبح مجرد تكلفة ضرورية.

وهناك معلم يكسر ثقة طلابه بأنفسهم. ويستخدم السخرية والإهانة.
ثم يبرر ذلك بأنه يصنع جيلاً قوياً.
وفي داخله لا يشعر بالذنب. بل يشعر بالفخر.
لأنه مقتنع أنه يؤدي رسالة.

وهذا ما يجعل الأمر خطيراً. فالإنسان عندما يؤذي وهو يعرف أنه يؤذي...
يبقى هناك صوت داخله يعترض.
أما عندما يؤذي وهو مقتنع أنه يفعل الصواب... فإن هذا الصوت يبدأ بالاختفاء.

ولهذا لا تبدأ الكوارث الكبرى من القسوة وحدها. بل من القسوة التي تجد لنفسها مبرراً أخلاقياً.
القسوة التي لا ترى نفسها قسوة.
القسوة التي ترتدي ثياب الواجب. وثياب الحب.
وثياب العدالة.

وحين ينجح الإنسان في إقناع نفسه بأن الهدف نبيل بما يكفي... يبدأ في التسامح مع أشياء لم يكن
لِيتسامح معها في ظروف أخرى.
أشياء كان سيرفضها.
ويستنكرها. ويغضب منها.
لكن الهدف الجديد يجعلها تبدو مختلفة.

بل يجعلها أحياناً ضرورية.

وهكذا يبدأ الطريق. ليس من الرغبة في الشر.
بل من الرغبة في تحقيق شيء يراه الإنسان خيراً.
لكن المشكلة أن الطريق إلى الأذى لا يُقاس بالنوايا وحدها. فالنوايا قد تكون طيبة.
والنتائج قد تكون مدمرة.
وقد يكون الإنسان مقتنعاً تماماً أنه ينقذ الآخرين... بينما هو في الحقيقة يدفعهم نحو الجرح.

ولهذا فإن السؤال الأخلاقي الأصعب ليس: ماذا أريد أن أحقق؟
بل:

ماذا أفعل بالناس وأنا أحاول تحقيقه؟ وهنا تبدأ المشكلة التي غيرت وجه التاريخ مرات لا تُحصى.
حين يصبح الهدف كبيراً إلى درجة...
يبدأ معها البشر بالاختفاء.

الغاية التي ابتلعت الوسيلة

في بداية أي فكرة عظيمة يكون الإنسان حاضراً. تُبنى المشاريع من أجله.
وتُكتب القوانين من أجله.
وتُرفع الشعارات من أجله. لكن شيئاً غريباً يحدث أحياناً.
شيئاً لا يلاحظه الناس إلا بعد فوات الأوان.
تبدأ الغاية كبيرة. ثم تكبر أكثر.
ثم تكبر إلى درجة تبتلع كل شيء حولها.
حتى الإنسان نفسه.

في البداية يقول الإنسان: "أريد أن أصل إلى هدف مهم."
ثم يصبح الهدف أهم.

ثم يصبح أهم من راحته. ثم أهم من الناس من حوله.
ثم يصل إلى مرحلة يصبح فيها الهدف أهم من البشر جميعًا.
وهنا تبدأ الكارثة.

تخيل أبًا يريد نجاح ابنه. في البداية يبدو الأمر طبيعيًا.
بل جميلًا.
كل أب يتمنى ذلك. لكن أحيانًا يتحول النجاح من أمنية إلى هوس.
ثم من هوس إلى مقياس وحيد للقيمة.
ثم يصبح الابن مشروعيًا. لا إنسانًا.
رقمًا في شهادة.
لا روحًا تحتاج إلى الحب.

في هذه اللحظة لا يعود السؤال: هل ابني سعيد؟
بل:

هل نجح؟ ولا يعود السؤال:

هل يشعر بالأمان؟

بل: هل تفوق على الآخرين؟

وهكذا تبدأ الغاية بابتلاع الإنسان.

وهناك زوج يريد الحفاظ على أسرته. وهو هدف نبيل.

لكن الخوف من فقدان الأسرة قد يتحول إلى سيطرة.

ثم إلى مراقبة. ثم إلى تضيق.

ثم إلى حياة كاملة قائمة على التحكم.

وفي كل خطوة يقول لنفسه: "أنا أحافظ على بيتي."

بينما البيت نفسه يختنق شيئًا فشيئًا.

والمشكلة أن الإنسان لا يلاحظ لحظة التحول. لا توجد لحظة واضحة يقول فيها:

الآن أصبحت الغاية أهم من البشر.

بل يحدث الأمر تدريجيًا. خطوة صغيرة.

ثم أخرى.

ثم أخرى. حتى يصبح ما كان مرفوضًا بالأمس مقبولًا اليوم.

وهكذا تعمل النفس البشرية. فهي لا تقفز عادة من الخير إلى الشر مباشرة.

بل تنتقل عبر سلسلة طويلة من التبريرات.

كل خطوة تبدو معقولة وحدها. لكن النهاية قد تكون بعيدة جدًا عن البداية.

هناك إنسان كان يرفض الكذب. ثم كذب مرة من أجل هدف مهم.

ثم كذب مرة أخرى من أجل الهدف نفسه.

ثم بدأ يرى أن الصدق ليس دائمًا ضروريًا. ثم انتهى إلى الكذب دون شعور بالذنب.

ليس لأنه أحب الكذب.

بل لأن الهدف أصبح أكبر من المبدأ.

وهناك إنسان كان يرفض الظلم. ثم ظلم مرة لأنه رأى أن الظروف استثنائية.

ثم ظلم مرة أخرى لأن القضية مهمة.

ثم بدأ يرى أن العدالة يجب أن تنتظر قليلًا. ثم انتهى إلى ممارسة الظلم نفسه الذي كان يكرهه.

ليس لأنه تغير فجأة.

بل لأن الغاية ابتلعت الوسيلة.

ولهذا فإن أخطر سؤال ليس: هل الهدف جيد؟

بل:

ماذا يحدث للبشر في طريق الوصول إليه؟ فكثير من الأهداف العظيمة تحولت إلى مآسٍ.
ليس لأنها كانت سيئة.

بل لأن أصحابها توقفوا عن رؤية البشر أثناء السعي إليها.

حين يصبح الهدف أكبر من الإنسان... تبدأ الرحمة بالتراجع.
ويبدأ الضمير بالتفاوض.

ويبدأ العقل بإنتاج المبررات. وتبدأ الكلمات الجميلة بإخفاء أشياء قاسية جدًا.

فالإنسان الذي ما زال يرى الوجوه سيتردد. وسيتألم.
وسيسأل نفسه.

أما الإنسان الذي لم يعد يرى إلا الهدف... فسيصبح مستعدًا لفعل أشياء كثيرة.
أشياء لم يكن يتخيل يومًا أنه قادر عليها.

وهنا تظهر الحقيقة التي تتكرر في كل زمان. كل طرف تقريبًا يرى نفسه منقذًا.
وكل طرف تقريبًا يرى نفسه صاحب الرسالة.
وكل طرف تقريبًا يعتقد أن الآخرين لا يفهمون ما يفهمه هو. ومن هنا تبدأ الحكاية التالية.
حكاية الأبطال الذين وقفوا في جهتين متقابلتين...
وكان كل واحد منهم مقتنعًا أنه ينقذ العالم.

الأبطال في الجانب الآخر

من أغرب الأشياء في الحياة أن كل قصة تقريبًا تملك بطلين. وليس بطلًا واحدًا.
فكل طرف يرى نفسه بطل القصة.
ويرى الطرف الآخر العقبة. أو المشكلة.
أو الخطر الذي يجب التغلب عليه.

حين يختلف زوجان بعد سنوات طويلة من الخلافات. ويجلس كل منهما يروي ما حدث.
قد تشعر أحيانًا أنك تستمع إلى قصتين مختلفتين تمامًا.
كل واحد يتذكر الألم الذي تعرض له. وينسى الألم الذي سببه.
كل واحد يتذكر اللحظات التي ظلم فيها.
وينسى اللحظات التي ظلم فيها. وكل واحد يرى نفسه في دور الضحية.
أو المنقذ.
أو صاحب الحق.

وليس لأن أحدهما يكذب بالضرورة. بل لأن الإنسان يرى العالم من نافذته الخاصة.
ويرى الجرح الذي أصابه بوضوح.
أما الجرح الذي سببه لغيره فيراه أقل وضوحًا. وأقل أهمية.
وأقل حضورًا في الذاكرة.

وهذا لا يحدث في العلاقات فقط. بل في كل مكان.
في الخلافات العائلية.
وفي النزاعات الاجتماعية. وفي الصراعات الفكرية.

كل طرف يملك رواية. وكل رواية تملك أبطالها.
وكل بطل يملك مبرراته.
ولهذا فإن الإنسان نادرًا ما يدخل معركة وهو مقتنع أنه الشرير. بل يدخلها وهو مقتنع أنه يدافع عن شيء ثمين.
عن حق.
أو كرامة. أو عدالة.

وهنا تظهر إحدى أكثر الحقائق إزعاجًا. أن النوايا الطيبة وحدها لا تمنع الكوارث.
فقد يملك طرفان نوايا بريانها نبيلة.

ومع ذلك يسبب كل منهما للآخر ألمًا هائلًا.

فالأب الذي يحرم ابنه من أشياء كثيرة قد يفعل ذلك حبًا. والابن الذي يبتعد عن أبيه قد يفعل ذلك حفاظًا على نفسه.

وكلاهما قد يكون مقتنعًا أنه يتصرف بطريقة صحيحة.

ومع ذلك يتألم الاثنان.

ولهذا فإن المشكلة لا تبدأ عندما نؤمن بشيء. بل عندما نتوقف عن تخيل أن الطرف الآخر يؤمن بشيء أيضًا.

عندما نفترض أن دوافعنا نبيلة.

أما دوافعه فخبثية. وأن أخطاءنا مفهومة.

أما أخطاؤه فمتعمدة.

وأن خوفنا مشروع. أما خوفه فمبالغ فيه.

في تلك اللحظة تبدأ الصورة بالاختلال. فلا يعود الطرف الآخر إنسانًا له منطقته الخاص.

بل يصبح شخصية ثانوية داخل قصتنا نحن.

شخصًا وجد فقط ليقف في طريقنا. أو ليمنعنا من الوصول إلى ما نريده.

ولهذا فإن كثيرًا من الصراعات لا تستمر بسبب اختلاف المصالح فقط. بل بسبب يقين كل طرف أنه الوحيد الذي يرى الحقيقة.

وأن الآخرين لا يملكون إلا الجهل.

أو التعصب. أو سوء النية.

لكن الحقيقة أكثر تعقيدًا. ففي كثير من الأحيان يكون الطرف الآخر إنسانًا عاديًا مثلك.

يخاف كما تخاف.

ويحب كما تحب. ويحلم كما تحلم.

لكنه وصل إلى استنتاج مختلف.

أو عاش تجربة مختلفة. أو نظر من زاوية مختلفة.

وهذا لا يعني أن الجميع على حق. ولا يعني أن كل الآراء متساوية.

لكنه يعني شيئاً مهماً جداً:

أن رؤية نفسك بطلاً لا تجعل منك بطلاً تلقائياً. وأن رؤية الآخرين أشراراً لا تجعلهم أشراراً تلقائياً.

فكلما ازداد اقتناع الإنسان بأنه يمثل الخير وحده... ازدادت قدرته على تبرير ما يفعله.

وكلما ازداد اقتناع الإنسان أن خصومه يمثلون الشر وحده...

ازدادت قدرته على تجاهل معاناتهم. ومن هنا تبدأ أخطر مرحلة في الرحلة كلها.

المرحلة التي لا يعود فيها الأذى مجرد خطأ.

ولا مجرد ضرورة. بل يتحول إلى واجب أخلاقي.

إلى شيء يعتقد الإنسان أنه يجب أن يفعله.

مهما كان الثمن.

حين يصبح الشر واجباً أخلاقياً

هناك مرحلة لا يعود فيها الإنسان مضطراً إلى تبرير أفعاله. ولا إلى إخفائها.

ولا حتى إلى الاعتذار عنها.

بل يصل إلى درجة يعتقد فيها أن ما يفعله ليس مقبولاً فقط... بل مطلوب.

وواجب.

وهنا تصبح الأمور أكثر خطورة مما يتخيل.

في المراحل السابقة كان الإنسان يقول: "أعرف أن هذا مؤلم، لكن لا خيار لدي."

أما الآن فيقول:

"هذا مؤلم، ولذلك يجب أن أفعله." وهذا فرق هائل.

فالإنسان لم يعد يرى الألم مشكلة.
بل أصبح يراه دليلاً على أهمية ما يفعل.

الأب الذي يضرب ابنه قد يبدأ وهو يشعر بالذنب. ثم مع الوقت يتحول الذنب إلى قناعة.
ثم تتحول القناعة إلى مبدأ.
ثم يبدأ بالنظر إلى كل أب رحيم على أنه ضعيف. وإلى كل طفل لا يخاف من والده على أنه سيئ التربية.
وهكذا لا تعود القسوة مجرد وسيلة.
بل تصبح فضيلة.

والمدير الذي يقسو على موظفيه قد يبدأ مقتنعاً أن الشدة ضرورية. ثم يتحول الأمر إلى جزء من هويته.
فيصبح اللطف ضعفاً.
والتفهم تهاوناً. والرحمة خطأ إدارياً.
ويبدأ في الفخر بما كان يجب أن يراجع.

وهذا ما يحدث دائماً عندما يختلط الواجب بالأناء. فالإنسان يحب أن يشعر أنه يفعل شيئاً مهماً.
ويحب أكثر أن يشعر أنه يفعل الشيء الصحيح.
لكن أخطر لحظة هي حين يتوقف عن سؤال نفسه: هل ما أفعله صحيح فعلاً؟
ويبدأ بسؤال مختلف:
كيف أجعله أكثر فاعلية؟

في تلك اللحظة يموت جزء مهم من الضمير. ليس لأنه اختفى تماماً.
بل لأنه أصبح يعمل في اتجاه واحد.
لم يعد يحاسب صاحبه. بل أصبح يدافع عنه.
ويبحث له عن الأعذار.

ولهذا لم تكن الكوارث الكبرى في التاريخ تبدأ من أشخاص فقدوا ضمائرهم. بل من أشخاص أقنعوا ضمائرهم.

أقنعوها أن ما يحدث ضروري.

وأن ما يفعلونه نبيل. وأن القسوة مؤقتة.

وأن الألم ثمن لا بد منه.

وأن الضحايا مجرد جزء من الطريق.

ومع كل خطوة يصبح التراجع أصعب. لأن الاعتراف بالخطأ لم يعد يعني مراجعة قرار واحد.

بل يعني هدم قصة كاملة.

قصة عاش الإنسان سنوات وهو يؤمن بها. وقصة بنى عليها صورته عن نفسه.

ولهذا يفضل كثير من الناس الاستمرار.

حتى عندما تبدأ النتائج في فضح الطريق.

فالإنسان يستطيع أن يتحمل الشعور بالذنب فترة. لكنه يجد صعوبة كبيرة في تحمل فكرة أنه كان مخطئاً طوال الوقت.

ولهذا يستمر أحياناً في الخطأ.

ليس لأنه لا يرى الحقيقة. بل لأنه يخاف منها.

وهنا نصل إلى أخطر صورة في هذا الفصل. صورة الإنسان الذي ينظر إلى نفسه في المرأة.

فيرى بطلاً.

بينما يرى الآخرون حوله ضحايا. ويرى نفسه منقذاً.

بينما يترك خلفه جراحاً.

ويرى نفسه صاحب رسالة. بينما يدفع الآخرون ثمن هذه الرسالة.

وهذا هو السبب في أن الشر لا يأتي إلينا غالباً بوجه الشر. لا يقول:

"أنا الظلم."

ولا يقول: "أنا القسوة".

ولا يقول:

"أنا الخراب." بل يأتي مرتدياً كلمات أجمل.

الواجب.

العدالة. المصلحة.

الحماية.

الإنقاذ. والخير.

وكلما كانت الكلمة أجمل... ازدادت حاجتنا إلى الحذر.

لأن أخطر الأفعال ليست تلك التي نرتكبها ونحن نعرف أنها خاطئة.

بل تلك التي نرتكبها ونحن مقتنعون أنها أعظم ما فعلناه.

ولهذا ربما لم تكن المشكلة الكبرى في التاريخ أن بعض البشر أحبوا الشر. بل أن كثيراً منهم كانوا مقتنعين تماماً أنهم يحاربونه.

وكانوا يرون أنفسهم أبطالاً.

ومنفذين. حتى وهم يتركون خلفهم الألم والخراب.

وفي النهاية يبقى السؤال الذي يجب أن يخيف كل إنسان أكثر من أي سؤال آخر: ماذا لو كان أكثر شيء أنا مقتنع به اليوم...

هو أكثر شيء أحتاج إلى مراجعته؟

وهل يمكن أن يكون الإنسان في أكثر لحظات حياته يقيناً... في أكثر لحظات حياته بُعداً عن الحقيقة؟

وهذا هو السؤال الذي سيقودنا إلى المرحلة الأخيرة من رحلة هذا الكتاب.

مرحلة لا ننظر فيها إلى المجتمع. ولا إلى الجماعات.

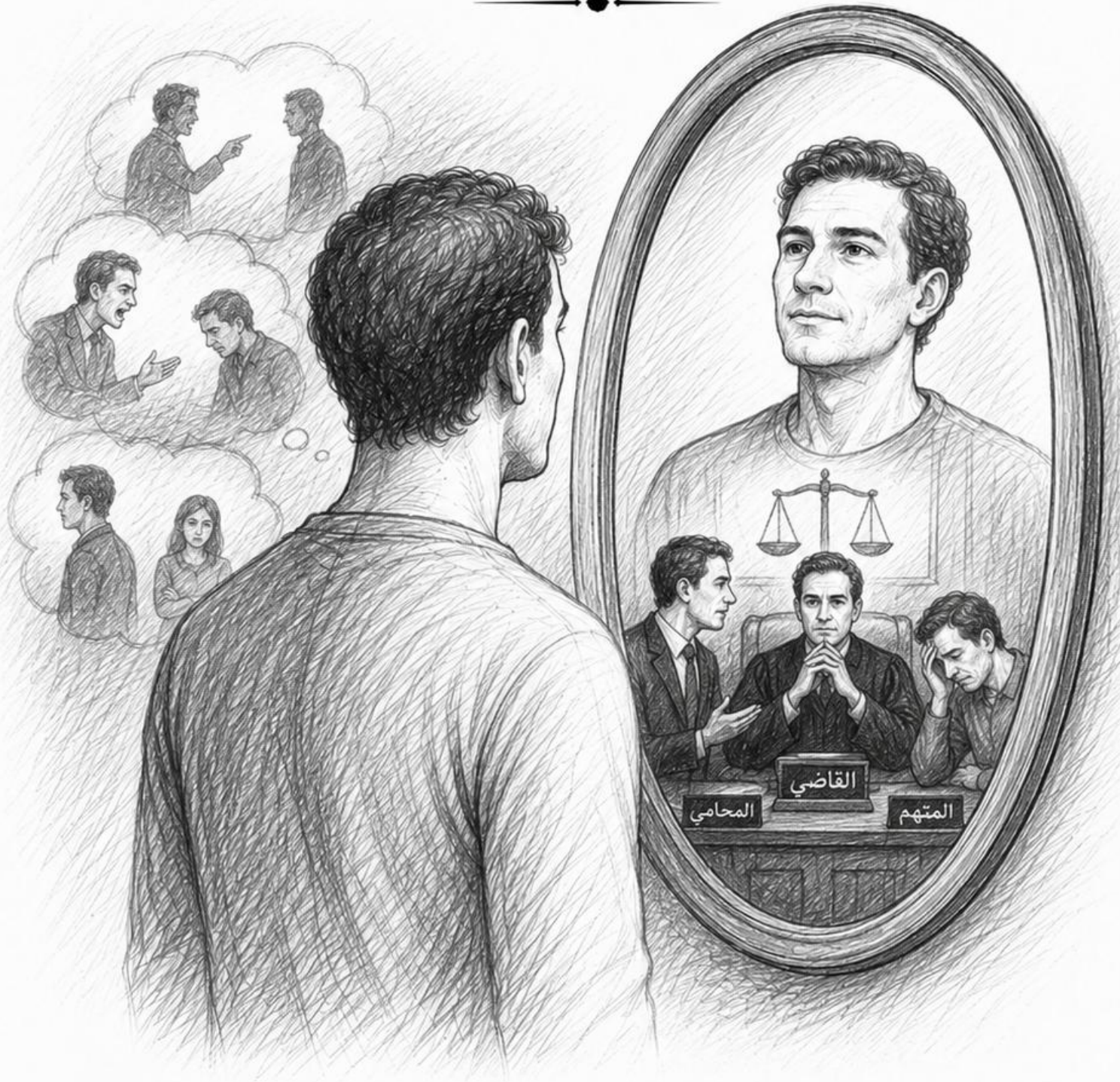
ولا إلى التاريخ.

إلى المرأة. إلى ذلك المكان الذي لا يمكن الهروب منه طويلاً.

الفصل التاسع

اختبار المرأة

القاضي والمحامي



الفصل التاسع

اختبار المرأة

القاضي والمحامي

هناك محكمة صغيرة تعمل داخل كل إنسان. محكمة لا تتوقف.

ولا تنام.

ولا تغلق أبوابها أبدًا. فيها قاضٍ.

وفيه محامٍ.

وفيه متهم. والمشكلة أن الأشخاص الثلاثة غالبًا ما يكونون الشخص نفسه.

حين يخطئ إنسان آخر معنا... نصبح قضاة ممتازين.

نلاحظ التفاصيل.

ونتذكر الكلمات. ونحلل النوايا.

ونصل إلى أحكام حاسمة بسرعة مذهلة.

نقول: لقد تعمد.

لقد كذب.

لقد ظلم. لقد أذى.

ونشعر أننا نرى الحقيقة بوضوح.

لكن حين نرتكب الخطأ نفسه... يتغير شيء غريب.

يختفي القاضي قليلًا.

ويتقدم المحامي إلى الأمام. وفجأة تظهر الظروف.

وكل الأشياء التي لم تكن مهمة قبل دقائق عندما كان المتهم شخصًا آخر.

إذا تأخر شخص عن وعده معنا قلنا: إنه غير مسؤول.

أما إذا تأخرنا نحن...

فقد كنا مشغولين. أو مرهقين.

أو حدث ظرف طارئ.
إذا كذب شخص علينا قلنا: إنه كاذب.
أما إذا كذبنا نحن...
فقد كانت كذبة صغيرة. أو مجاملة.
أو محاولة لتجنب مشكلة أكبر.

وهكذا يعمل العقل. ليس لأنه شرير.
بل لأنه يحبنا.
ويحاول حمايتنا. ويحاول أن يمنع صورتنا عن أنفسنا من الانهيار.

في الفصول الأولى رأينا كيف يصنع الإنسان صورة لنفسه. وكيف يحميها.
وكيف يبرر أخطاءه.
والآن نرى الأداة التي يستخدمها لتحقيق ذلك. المحامي الداخلي.
ذلك الصوت الذي لا يتوقف عن الدفاع.

وحين يرتكب الإنسان خطأً صغيراً... يتدخل المحامي فوراً.
ويقول:

لم تكن تقصد. الجميع يفعل ذلك.
الأمر ليس مهماً.

لقد اضطررت. لم يكن لديك خيار.

وفي كثير من الأحيان يكون جزء من هذا الكلام صحيحاً.

لكن المشكلة ليست في وجود المحامي. بل في غياب القاضي.

فالإنسان يحتاج إلى الرحمة مع نفسه. لكنه يحتاج أيضاً إلى الصدق معها.
يحتاج إلى الفهم.

لكنه يحتاج أيضًا إلى المحاسبة. أما حين يختفي أحدهما تمامًا...
تبدأ المشكلة.

هناك أشخاص يعيشون طوال حياتهم مع قاضٍ قاسٍ جدًا. يعاقبهم على كل خطأ.
ويجلدهم على كل هفوة.
وهؤلاء يتألمون كثيرًا. لكن هناك نوعًا آخر لا يقل خطورة.
أشخاص يعيشون مع محامٍ لا يخسر قضية أبدًا.
محامٍ يستطيع تبرير أي شيء. وتفسير أي شيء.
وتجميل أي شيء.
حتى تصبح المراجعة مستحيلة.

ولهذا فإن أخطر الأكاذيب ليست تلك التي نقولها للآخرين. بل تلك التي نقولها لأنفسنا.
لأن الآخرين قد يكتشفون الحقيقة يومًا.
أما نحن... فقد نعيش سنوات طويلة داخل الرواية التي صنعناها.
دون أن نشك فيها.

فكر في آخر خلاف كبير خضته. آخر شخص شعرت أنه ظلمك.
آخر إنسان أغضبك.
آخر موقف كنت مقتنعًا فيه أنك على حق بالكامل. ثم اسأل نفسك سؤالًا بسيطًا:
كم من الوقت قضيت تفكر في أخطائه؟
وكم من الوقت قضيت تفكر في أخطائك؟

هذا السؤال وحده يكشف أحيانًا أشياء كثيرة. يكشف أين يقف القاضي.
وأين يقف المحامي.
ويكشف أيضًا أيهما يملك الصوت الأعلى داخلنا.

فالإنسان لا يحتاج إلى أن يصبح مثاليًا. ولا إلى أن يتوقف عن الخطأ.
لكن ربما يحتاج إلى شيء أبسط.
أن يسمح للقاضي بالكلام أحيانًا. وأن يتوقف عن إسكات الحقيقة كلما كانت مؤلمة.

لأن بداية كل مراجعة حقيقية... ليست الاعتراف بأن الآخرين أخطأوا.
بل الاعتراف بأننا نحن أيضًا قد نكون أخطأنا.
وهنا يبدأ الاختبار الأول. اختبار بسيط جدًا في شكله.
وصعب جدًا في نتائجه.
اختبار يمكن أن يهدم كثيرًا من الأوهام التي بنيناها عن أنفسنا. سؤال واحد فقط:
ماذا لو فعلها غيري؟

لو فعلها غيري

هناك سؤال صغير. بسيط جدًا في شكله.
لكنه من أكثر الأسئلة قدرة على كشف الحقيقة.
سؤال يستطيع أن يهدم سنوات من التبرير. وسنوات من الأعداء.
وسنوات من خداع النفس.
السؤال هو: ماذا لو فعلها غيري؟

في أغلب الأحيان لا نكتشف أخطاءنا لأننا لا ننظر إليها من الخارج. ننظر إليها من الداخل.
من داخل ظروفنا.
ومن داخل نوايانا. ومن داخل قصتنا الخاصة.

حين يرفع أب صوته على ابنه قد يقول: "كنت غاضبًا."
"كنت متعبًا".

"كنت أحاول تربيته." لكن لو سمع رجلًا آخر يتحدث مع ابنه بالطريقة نفسها...
هل سيقدم له الأعداء نفسها؟

أم سيرى القسوة التي لم يرها في نفسه؟

وحين تهين زوجة زوجها أثناء خلاف حاد قد تقول: "لقد استفزني."

"لم أعد أحتمل".

"كان يجب أن يسمع ذلك." لكن لو سمعت امرأة أخرى تُهان بالكلمات نفسها...

هل ستصف الأمر بالطريقة نفسها؟

أم ستراه إهانة واضحة؟

وحين يهمل زوج مشاعر زوجته سنوات طويلة قد يقول: "كنت أعمل من أجل الأسرة."

"كنت أحاول تأمين المستقبل".

"لم يكن لدي وقت." لكن لو كانت زوجته هي التي تجاهلته بالطريقة نفسها...

هل كان سيقبل التفسير نفسه؟

أم كان سيشعر أنه مُهمل ومرفوض؟

وهنا تظهر المشكلة. لسنا فقط أكثر تسامحًا مع أنفسنا.

بل نستخدم معايير مختلفين تمامًا.

واحدًا لنا.

نحن نحاكم الآخرين بناءً على أفعالهم. لكننا نحاكم أنفسنا بناءً على نوايانا.

نرى ما فعلوه.

لكننا نرى ما أردنا فعله. نرى نتائج أفعالهم.

لكننا نرى دوافع أفعالنا.

ولهذا يبدو ميزان العدالة داخلنا مائلًا باستمرار.

ولو أردت أن تعرف الحقيقة في أي موقف تقريبًا... فجرّب هذا الاختبار.

خذ الفعل نفسه.

وانزع عنه اسمك. وانزع عنه قصتك.

ثم ضعه في يد شخص آخر.

واسأل نفسك: هل سأراه بالطريقة نفسها؟

إذا كان الجواب نعم... فربما تكون قريباً من الإنصاف.

أما إذا تغير حكمك بالكامل...

فربما لا تكون المشكلة في الفعل. بل في صاحبه.

وربما يكون هذا الصاحب هو أنت.

ولهذا فإن كثيراً من الناس لا يحتاجون إلى معرفة المزيد عن الأخلاق. بل يحتاجون إلى تطبيق الأخلاق نفسها على أنفسهم.

فالعادل الحقيقي لا يظهر حين نحكم على الآخرين.

بل حين نحكم على أنفسنا بالمعيار نفسه.

تخيل لو أن كل إنسان سأل نفسه قبل أي تبرير: هل سأقبل هذا العذر لو صدر من غيري؟

كم من الأعداء ستسقط؟

وكم من القصص ستنتهر؟ وكم من الحقائق ستظهر؟

فالإنسان لا يخدع نفسه دائماً بالكذبة الكبيرة. أحياناً يخدع نفسه باستثناء صغير.

استثناء واحد فقط.

استثناء يجعله مختلفاً عن الجميع. ويجعله يستحق معاملة خاصة.

وقواعد خاصة.

ومن هنا تبدأ معظم الانحرافات الأخلاقية.

لأن الخطأ لا يكبر فجأة. بل يبدأ غالباً بجملته بسيطة جداً:

"حالتي مختلفة".

"ظروفي مختلفة." "أنا لست مثل الآخرين."

وهذه هي الجملة نفسها التي قابلناها في بداية رحلتنا في هذا الكتاب.
الجملة التي كانت وراء كثير من التبريرات. وكثير من الأخطاء.
وكثير من الأوهام.

لكن هناك نوعاً آخر من الخداع أكثر هدوءاً. وأكثر خطورة.

ليس الكذب على الآخرين.

بل الكذب الذي نمارسه على أنفسنا كل يوم. الكذب الذي لا نشعر به أحياناً.
لأنه أصبح جزءاً من الطريقة التي ننظر بها إلى حياتنا.

الأكاذيب الصغيرة

حين يسمع الإنسان كلمة "كذب"، غالباً ما يفكر في شيء واضح. قصة مختلفة.
أو حقيقة مخفية.

أو خداع متعمد. لكن أكثر الأكاذيب التي تؤثر في حياتنا ليست دائماً بهذه الصورة.
فبعض الأكاذيب هادئة جداً.
صغيرة جداً. ومتكررة جداً.
إلى درجة أننا نتوقف عن ملاحظتها.

وهذه الأكاذيب لا نقولها للآخرين فقط. بل لأنفسنا أيضاً.

بل ربما لأنفسنا أكثر.

حين يفشل الإنسان في أمر مهم قد يقول: "لم تكن لدي فرصة حقيقية."
وأحياناً يكون ذلك صحيحاً.

لكن أحياناً يكون السبب أنه لم يبذل ما يكفي. أو لم يستعد جيداً.
أو استسلم مبكراً.

لكن الاعتراف بذلك مؤلم. ولهذا يكون التفسير الآخر أكثر راحة.

وحين يخسر علاقة مهمة قد يقول: "الطرف الآخر هو السبب".
وأحيانًا يكون ذلك صحيحًا أيضًا.
لكن نادرًا ما تكون أي علاقة قصة طرف واحد. ونادرًا ما يكون أحد الطرفين بريئًا بالكامل.
لكن النفس لا تحب هذه الحقيقة.
لأنها معقدة. أما البراءة الكاملة فبسيطة.
ومريحة.

ولهذا فإن الإنسان يميل إلى إعادة كتابة قصصه. ليس بالكذب الصريح.
بل بالحذف.
يحذف التفاصيل التي لا تعجبه. ويكبر التفاصيل التي تخدمه.
ويعيد ترتيب الأحداث بطريقة تجعله يبدو أفضل.
ثم يصدق الرواية الجديدة مع الوقت.

وهذا ما يجعل الذكريات أحيانًا خادعة. فنحن لا نتذكر ما حدث دائمًا.
بل نتذكر النسخة التي كررناها لأنفسنا مرات كثيرة.
حتى أصبحت هي الحقيقة في نظرنا.

هناك إنسان يؤمن أنه شخص صادق. ولهذا لا يرى أكاذيبه الصغيرة.
يرى نفسه صادقًا أولاً.
ثم يفسر الأكاذيب لاحقًا. وهناك إنسان يؤمن أنه طيب.
ولهذا يجد صعوبة في رؤية القسوة التي قد يمارسها.
وهناك إنسان يؤمن أنه عادل. ولهذا لا يلاحظ تحيزاته.

فنحن لا نرى أنفسنا كما نحن دائمًا. بل كما اعتدنا أن نراها.

وهنا تكمن قوة الأكاذيب الصغيرة.

فهي لا تصدمنا. ولا تزعجنا.

ولا تجبرنا على المواجهة.

يومًا بعد يوم. وسنة بعد سنة.

ولأنها صغيرة... فإننا لا نخاف منها.

لكن تراكمها هو ما يصنع المسافة بين الحقيقة والصورة التي نحملها عن أنفسنا.

فالكذبة الكبيرة يسهل اكتشافها. أما الكذبة الصغيرة فتختبئ داخل التبرير.

وداخل النية الحسنة.

وداخل الجملة التي نقولها لأنفسنا كل يوم: "الأمر ليس بهذه الأهمية."

لكن المشكلة أن الأشياء المهمة لا تتغير فجأة. بل تتغير بالتدريج.

كما يتآكل الحجر قطرة بعد قطرة.

وكما يبتعد الإنسان عن الطريق خطوة بعد خطوة. كذلك يحدث مع الصدق الداخلي.

لا يختفي مرة واحدة.

بل يضعف قليلاً. حتى يصبح الفرق بين الحقيقة والرواية كبيراً جداً.

ولهذا فإن أخطر سؤال ليس: هل أكذب على الآخرين؟

بل:

أين أكذب على نفسي؟ أين أغير القصة؟

أين أبحث عن الأعذار؟

أين أرفض رؤية ما لا يعجبني؟

هذه الأسئلة ليست مريحة. ولهذا يهرب منها معظم الناس.

لكن الإنسان لا يقترب من الحقيقة عندما يبحث عما يؤكد صورته الجميلة.

بل عندما يجرؤ على البحث عما يناقضها.

وهنا نقترّب من أصعب لحظة في هذا الفصل كله. اللحظة التي لا نحبها.
اللحظة التي يسقط فيها التبرير.
وتسقط الأعداء. ويبقى الإنسان وحده أمام الحقيقة.

اللحظة التي لا نحبها

هناك لحظات كثيرة يحاول الإنسان الهروب منها. لحظات الخسارة.
ولحظات الفشل.
ولحظات الندم. لكن هناك لحظة أخرى أكثر صعوبة من كل ذلك.
لحظة يرى فيها نفسه كما هي.
لا كما يحب أن يراها. ولا كما يقدمها للناس.

هذه اللحظة نادرة. ليس لأن الحقيقة نادرة.
بل لأن الشجاعة نادرة.
فالإنسان يستطيع أن يواجه العالم كله أحياناً. لكنه يجد صعوبة في مواجهة نفسه.

من السهل أن تعترف بأن شخصاً آخر أخطأ. ومن السهل أن تشرح لماذا ظلمك الآخرون.
ومن السهل أن تتحدث عن الجراح التي سببها لك.
لكن ماذا عن الجراح التي سببتها أنت؟ ماذا عن اللحظات التي كنت فيها الطرف المؤذي؟
أو الظالم؟
أو القاسي؟ هذه هي المنطقة التي لا يحب العقل زيارتها.

ولهذا يقضي بعض الناس سنوات طويلة يراجعون أخطاء الآخرين. ولا يقضون ساعة واحدة يراجعون
أنفسهم.
يعرفون كل شيء عن ظلم من حولهم.

لكنهم لا يعرفون شيئاً تقريباً عن ظلمهم هم. ليس لأنهم سيئون.
بل لأن النفس البشرية بارعة جداً في تجنب الألم.
والحقيقة المؤلمة من أكثر الأشياء التي نحاول الهروب منها.

هناك أب أمضى سنوات مقتنعا أنه كان صارماً فقط. ثم جاء يوم سمع فيه ابنه يتحدث عن طفولته.
ولأول مرة رأى القصة من الجهة الأخرى.
ورأى الخوف الذي لم يكن يراه. ورأى الجرح الذي لم يقصده.
ورأى نفسه بطريقة مختلفة.
وفي تلك اللحظة لم يعد السؤال: ماذا كنت أقصد؟
بل:
ماذا تركت خلفي؟

وهناك زوجة ظلت سنوات مقتنعة أنها كانت تدافع عن نفسها. ثم اكتشفت أن بعض دفاعها تحول إلى
قسوة.
وأن بعض ألمها تحول إلى أذى.
وأن بعض ما كانت تعتبره حقاً كان يحمل داخله ظلماً لم تنتبه إليه.

وهناك ابن أمضى عمره يرى نفسه ضحية. ثم اكتشف أن غضبه القديم جعله يجرح أشخاصاً لم يؤذوه
أصلاً.
وأن بعض ما يكرهه في الآخرين بدأ يعيش داخله هو أيضاً.

هذه اللحظات مؤلمة. لكنها ثمينة.
لأنها اللحظات التي يبدأ فيها الإنسان برؤية الحقيقة.

فالحقيقة لا تظهر حين ندافع عن أنفسنا. ولا حين نهاجم الآخرين.
بل حين نتوقف للحظة عن فعل الأمرين معاً.

حين نصمت. وننظر.

ونستمع.

دون محامٍ. ودون أعداء.

ودون روايات جاهزة.

وفي تلك اللحظة يكتشف الإنسان شيئاً مهماً جداً. أنه ليس بريئاً بالكامل.

لكنه ليس وحشاً أيضاً.

ليس كما كان يتخيل في أفضل صوره. ولا كما يخشى في أسوأ صوره.

بل شيء أكثر إنسانية.

وأكثر تعقيداً.

ولهذا فإن النضج الحقيقي لا يبدأ عندما يكتشف الإنسان أخطاء الآخرين. بل عندما يصبح قادراً على اكتشاف أخطائه هو دون أن ينهار.

ودون أن يبررها.

ودون أن يهرب منها.

فالاعتراف بالخطأ ليس إهانة. وليس هزيمة.

وليس ضعفاً.

بل هو من أصعب أشكال القوة. لأن الإنسان حين يعترف بالحقيقة لا يفقد نفسه.

بل يقترب منها.

وربما لهذا السبب يخاف كثير من الناس من المرأة. ليس مرآة الوجه.

بل مرآة النفس.

المرأة التي لا تعكس الشكل. بل تعكس الحقيقة.

والتي لا تُظهر ما نريد أن نراه.

بل ما نحاول إخفاءه.

وهنا نصل إلى المحطة الأخيرة في هذا الفصل. إلى الاختبار الأخير.
إلى المرأة التي وقف أمامها هذا الكتاب كله منذ الصفحة الأولى.

المرأة

في نهاية هذه الرحلة الطويلة... بعد كل الفصول السابقة...

بعد الحديث عن الكذب.

والتبرير. والقسوة.

يبقى شيء واحد فقط.

المرأة.

ليس لأن المرأة تملك الإجابات. بل لأنها تملك الأسئلة.

والأسئلة الصادقة أحياناً أهم من الإجابات المريحة.

عندما تقف أمام المرأة لا تسأل: هل أنا إنسان جيد؟

فهذا سؤال واسع جداً.

وغالباً ما يمنحك إجابة تحب سماعها. اسأل بدلاً من ذلك:

هل أقبل من غيري ما أفعله أنا؟

هل أعطي نفسي أعذاراً لا أعطيها للآخرين؟ هل أبحث عن الحقيقة...

أم عن ما يجعلني أشعر بالراحة؟

هل أراجع نفسي فعلاً... أم أراجع الآخرين فقط؟

هذه الأسئلة لا تصنع إنساناً مثاليًا. ولا تمنع الخطأ.

ولا تمنع السقوط.

لكنها تمنع شيئاً أخطر. تمنع الغرور الأخلاقي.

ذلك الشعور الذي يجعل الإنسان يعتقد أنه تجاوز الحاجة إلى المراجعة.

فالخطر الحقيقي لا يبدأ عندما نخطئ. بل عندما نتوقف عن الاعتراف بإمكانية الخطأ.
وعندما نتوقف عن الشك في أنفسنا.

وعندما نتحول من بشر يتعلمون... إلى بشر يدافعون عن أنفسهم طوال الوقت.

في بداية هذا الكتاب ربما كان من السهل أن يجد القارئ أمثلة كثيرة في الآخرين. في الزوج.
وفي الزوجة.
وفي الأب. لكن هذا الفصل لم يُكتب من أجلهم.
كُتب من أجل تلك اللحظة التي يختفي فيها الجميع.
ولا يبقى إلا أنت.

أنت وحدك مع نفسك. دون جمهور.

ودون تصفيق.

ودون دفاع. دون أن تكون ضحية.

ودون أن تكون بطلاً.

فقط إنساناً. يحاول أن يرى نفسه بصدق.

وربما تكون هذه أصعب مهمة في الحياة كلها. لأن رؤية الحقيقة في الآخرين سهلة نسبياً.

أما رؤيتها في أنفسنا فتحتاج شجاعة نادرة.

شجاعة أن نعترف أننا كنا مخطئين. أو قساة.

أو أنانيين.

دون أن نحطم أنفسنا. ودون أن نهرب منها.

فالإنسان الناضج ليس الذي يعتقد أنه أفضل من غيره. ولا الذي يرى نفسه أسوأ من غيره.
بل الذي يرى نفسه كما هي.

بما فيها من خير. وبما فيها من نقص.

وبما فيها من تناقضات.

ولهذا فإن الهدف من هذا الكتاب لم يكن أن يجعلك تشك في كل شيء. ولا أن يجعلك تحتقر نفسك.

ولا أن يجعلك ترى العالم مكانًا مظلماً.

بل أن يمنحك شيئاً أبسط. قدرة صغيرة على التوقف بين الحين والآخر.

والنظر في المرأة.

وسؤال نفسك: هل ما زلت أرى الحقيقة؟

أم أنني بدأت أرى فقط ما أريد أن أراه؟

فربما لا تكون المشكلة في عدد الأخطاء التي ارتكبتها. بل في عدد الأخطاء التي ما زلنا نرفض الاعتراف بها.

وربما لا يكون الفرق بين الإنسان الحكيم والإنسان الغافل...

أن الأول يخطئ أقل. بل أن الأول يراجع نفسه أكثر.

وهكذا تنتهي رحلة النظر إلى الآخرين. لتبدأ رحلة أصعب بكثير.

رحلة النظر إلى الذات.

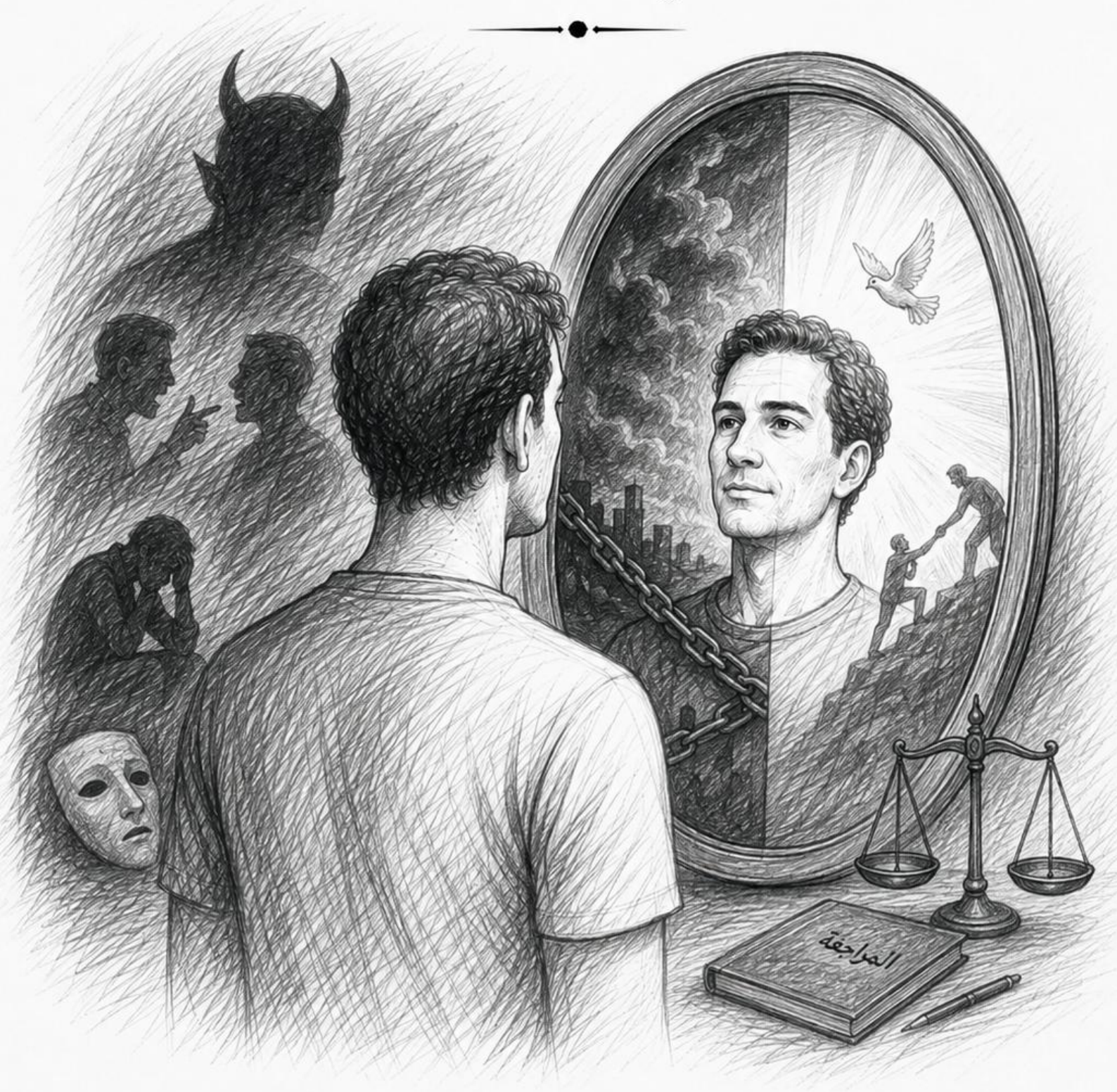
لأن الإنسان لا يتحرر عندما يكتشف أخطاء العالم فقط...

بل عندما يكتشف أخطاءه هو أيضاً.

الفصل العاشر

هل يوجد إنسان جيد؟

الإنسان الذي يحمل النور والظل



الفصل العاشر

هل يوجد إنسان جيد؟

الإنسان الذي يحمل النور والظل

منذ بداية هذا الكتاب كنا نطارد سؤالاً واحداً. سؤالاً ظهر بأشكال مختلفة.
مرة في صورة أب قاسٍ.

ومرة في صورة زوج مهمل. ومرة في صورة زوجة مخادعة.

ومرة في صورة إنسان يقف أمام المرأة.

لكن السؤال كان واحداً دائماً: من هو الشرير؟

في طفولتنا كانت الإجابة سهلة. الشرير هو الشخص السيئ.

والبطل هو الشخص الجيد.

وكانت القصص تنتهي دائماً بانتصار أحدهما على الآخر. لكن الحياة لم تكن بهذه البساطة أبداً.

فكلما اقتربنا من البشر أكثر... أصبحت الحدود أقل وضوحاً.

وكلما فهمنا الناس أكثر...

أصبح الحكم عليهم أصعب. وكلما نظرنا داخل أنفسنا...

اكتشفنا أننا لسنا كما كنا نظن.

في بداية الرحلة كان من السهل أن نجد أمثلة على الشر. في الآخرين.

في المجتمع.

في التاريخ. لكن مع كل فصل بدأ شيء يتغير.

بدأت الصورة تصبح أكثر تعقيداً.

وأقل راحة. وأقرب إلى الحقيقة.

اكتشفنا أن الإنسان لا يرى نفسه شريراً. وأنه يبرر أفعاله.

ويحمي صورته عن نفسه.

ثم اكتشفنا أن المجتمع يفعل الشيء نفسه. وأن الجماعات تفعل الشيء نفسه.
وأن التاريخ نفسه مليء بأشخاص كانوا مقتنعين أنهم يفعلون الخير.

وفي نهاية الرحلة وصلنا إلى المرأة. وهناك حدث شيء مهم.
لم نعد نسأل:

من هو الشرير؟ بل بدأنا نسأل:

هل يمكن أصلاً تقسيم البشر بهذه السهولة؟

الحقيقة التي لا يحبها العقل هي أن الإنسان ليس مخلوقاً من لون واحد. ليس نوراً كاملاً.
وليس ظلاماً كاملاً.
بل مزيج دائم من الاثنين.

داخل الإنسان القدرة على الرحمة. وداخله القدرة على القسوة.
داخله الصدق.
وداخله الكذب. داخله الشجاعة.
وداخله الخوف.
داخله الكرم. وداخله الأنانية.
وفي كل يوم تقريباً تتحرك هذه الأشياء معاً.
وتتصارع معاً. وتعيد تشكيل الشخص الذي يصبحه.

ولهذا فإن البحث عن إنسان نقي تماماً يشبه البحث عن ظل بلا نور. أو نور بلا ظل.
شيء لا وجود له في الواقع.

هناك أب أحب أبنائه بصدق. لكنه جرحهم أحياناً.
وهناك أم ضحت كثيراً.

لكنها أخطأت كثيرًا أيضًا. وهناك زوج كان مخلصًا في أشياء كثيرة.
ومقصرًا في أشياء أخرى.
وهناك زوجة حملت الحب في قلبها. وحملت أخطاءها معه أيضًا.

بل إن الإنسان نفسه قد يكون كريماً في موقف. وأنانياً في موقف آخر.
وقد يكون شجاعاً اليوم.
ليس لأنه منافق. بل لأنه إنسان.

ولهذا فإن السؤال ربما كان خاطئاً من البداية. ربما لا يكون السؤال:
هل يوجد إنسان جيد؟
بل: كيف يتعامل الإنسان مع الخير والشر الموجودين داخله؟

لأن المعركة الحقيقية لم تكن يوماً بين الأخيار والأشرار. بل داخل كل إنسان.
بين النسخة التي تعرف الحقيقة.
والنسخة التي تبرر. بين الضمير.
والعذر.
بين الشجاعة. والهروب.

وربما لهذا السبب لا يوجد إنسان يستطيع أن يقول بصدق كامل: "أنا مختلف عن الجميع."
لأننا جميعاً نحمل التناقض نفسه.
والضعف نفسه. والقدرة نفسها على الخطأ.

ولهذا فإن الإنسان الذي يفهم نفسه جيداً يصبح أقل غروراً. وأقل اندفاعاً في الأحكام.
وأقل ثقة بأنه أفضل من الآخرين.
لأنه يعرف شيئاً مهماً. يعرف أن الظروف لو تغيرت...
والخيارات لو تغيرت...

والحياة لو سارت بطريقة مختلفة... فربما كان قادرًا على أشياء لم يكن يتخيلها.
جيدة كانت أو سيئة.

وهكذا نصل إلى أول حقيقة في هذا الفصل الأخير: لا يوجد إنسان من نور خالص.
ولا إنسان من ظلام خالص.
بل يوجد بشر... يحملون الاثنين معًا.

لنسا أسوأ ما فعلناه

من أكثر الأشياء قسوة التي يفعلها البشر ببعضهم... أنهم يختصرون حياة كاملة في لحظة واحدة.
وفي خطأ واحد.
وفي قرار واحد.

حين يخطئ إنسان خطأ كبيرًا... يصبح ذلك الخطأ أحيانًا هويته كلها.
يُنسى كل شيء آخر.
تُنسى السنوات. وتُنسى المحاولات.
وتُنسى اللحظات الجيدة.

نحن نفعل ذلك مع الآخرين كثيرًا. لكننا نفعله مع أنفسنا أيضًا.
فكم من إنسان عاش سنوات وهو يحمل ذنبًا قديمًا.
وكم من إنسان أقنع نفسه أن أسوأ لحظة في حياته هي حقيقته الوحيدة. وكم من إنسان توقف عن رؤية
كل ما فيه من خير لأنه لم يستطع نسيان خطأ واحد.

لكن الحقيقة أكثر عدلًا من ذلك. فالخطأ مهم.
ويجب ألا يُنكر.

ويجب ألا يُبرر. لكن الإنسان أكبر من خطئه.
كما أن البحر أكبر من موجة واحدة.

والكتاب أكبر من صفحة واحدة. والعمر أكبر من لحظة واحدة.

هناك من كذب. ثم صدق ألف مرة.

وهناك من ظلم.

فأي نسخة منهم هي الحقيقة؟

المشكلة أن العقل يحب الاختصار. يحب الأحكام السريعة.

يحب أن يضع الناس داخل صناديق واضحة.

جيد. سيئ.

صالح.

فاسد. لكن الحياة لا تعمل بهذه البساطة.

فالإنسان ليس أسوأ شيء فعله. وإلا لما استحق أحد فرصة ثانية.

ولا فرصة ثالثة.

ولا أي فرصة أصلاً.

ولو كان البشر يُحاكمون فقط بأكبر أخطائهم... لما بقي أحد خارج دائرة الإدانة.

لأن كل إنسان تقريباً يحمل في ذاكرته شيئاً يتمنى لو أنه لم يفعله.

أو لم يقله. أو لم يؤمن به.

وفي نهاية الأمر ليست قيمة الإنسان في أنه لم يسقط. بل في ما فعله بعد السقوط.

هل بقي هناك؟

أم حاول النهوض؟ هل أنكر؟

أم اعترف؟

هل برر؟ أم تعلم؟

ولهذا فإن الخطأ لا يكشف حقيقة الإنسان كلها. بل يكشف جزءاً منها فقط.
كما أن النجاح لا يكشفها كلها.
والفشل لا يكشفها كلها. والانتصار لا يكشفها كلها.
فالإنسان أعقد من أن يُختصر في لحظة.
وأوسع من أن يُختصر في قرار.

لكن هناك خطأ آخر لا يقل خطورة. خطأ يقع فيه كثير من الناس عندما يهربون من أسوأ نسخهم...
فيتعلقون بأفضل نسخة يتخيلونها عن أنفسهم.
وهنا تظهر مشكلة مختلفة تماماً. مشكلة الإنسان الذي يصدق صورته الجميلة أكثر مما ينبغي.

ولسنا أفضل ما فعلناه

إذا كان الظلم أن نختصر الإنسان في أسوأ لحظة من حياته... فإن ظلمًا آخر لا يقل خطورة هو أن
نختصره في أفضل لحظة.

بعض الناس يقضون حياتهم هاربين من أخطائهم. وبعضهم يقضون حياتهم مختبئين خلف إنجازاتهم.
وفي الحالتين تضيع الحقيقة.

فالإنسان الذي يركز فقط على أسوأ ما فعل قد يغرق في الشعور بالذنب. أما الإنسان الذي يركز فقط
على أفضل ما فعل...
فقد يغرق في الوهم.

هناك أب كان أبًا رائعًا في مواقف كثيرة. ضحى.
وتعب.

وقدم الكثير. ثم بدأ يعتقد أن كل ما يفعله صحيح.
وأن تاريخه الطويل يمنحه حصانة من المراجعة.
فلم يعد يرى أخطائه الجديدة. لأن إنجازاته القديمة أصبحت درعًا يحمي به.

وهناك أم أحببت أبناءها بصدق. وفعلت من أجلهم ما لا يفعله كثيرون.
لكنها مع الوقت أصبحت ترفض أي نقد.
وكلما أشار أحد إلى خطأ ارتكبته... استحضرت سنوات التضحية.
وكأن الخير القديم يمحو الخطأ الجديد.

وهناك زوج ظل سنوات وفياً ومخلصاً. ثم بدأ يعتقد أن هذا الوفاء وحده يكفي.
وأن كل تقصير آخر يمكن التغاضي عنه.
وهناك زوجة كانت داعمة ومخلصة. ثم تحولت هذه الحقيقة إلى سبب يمنعها من رؤية قسوتها أحياناً.

فالإنسان لا يخدع نفسه فقط بالأعداء. بل يخدعها أيضاً بالإنجازات.
وبالصورة الجميلة التي يحملها عن نفسه.

في الفصل الأول رأينا كيف يحمي الإنسان صورته الداخلية. وفي الفصل التاسع رأينا كيف يدافع عنها.
أما هنا فنرى الوجه الأخير للمشكلة.
حين تتحول الصورة الجميلة نفسها إلى حجاب يمنع الإنسان من رؤية الحقيقة.

فقد يفعل الإنسان عملاً نبيلاً. ثم يقضي سنوات يعيش على ذكرى ذلك العمل.
وقد يحقق نجاحاً حقيقياً.
ثم يبدأ في استخدامه كدليل دائم على صواب كل ما يفعله. وقد يكون فعل الخير فعلاً.
لكن الخير القديم لا يجعل الإنسان معصوماً.
كما أن الخطأ القديم لا يجعله شريراً إلى الأبد.

ولهذا فإن أخطر عبارة يمكن أن يقولها الإنسان لنفسه ليست: "أنا سيئ."
بل:

"أنا جيد بما يكفي لأتوقف عن مراجعة نفسي." لأن اللحظة التي يتوقف فيها الإنسان عن المراجعة... هي اللحظة التي يبدأ فيها بالابتعاد عن الحقيقة.

فالضمير ليس جائزة يحصل عليها الإنسان ثم يحتفظ بها. وليس وسامًا يعلقه على صدره. الضمير عملية مستمرة. حوار لا ينتهي. ومراجعة لا تتوقف.

ولهذا فإن أفضل ما فعلناه لا يعرفنا بالكامل. كما أن أسوأ ما فعلناه لا يعرفنا بالكامل. فالإنسان ليس لحظة واحدة. ولا قرارًا واحدًا. ولا إنجازًا واحدًا. إنه مجموع رحلة كاملة. رحلة لا تزال مستمرة.

وربما لهذا السبب لا يكون الفرق الحقيقي بين البشر في حجم أخطائهم. ولا في حجم إنجازاتهم. بل في شيء آخر تمامًا. في قدرتهم على التوقف بين الحين والآخر... وسؤال أنفسهم السؤال الذي هرب منه كثيرون: هل ما زلت أرى نفسي كما هي؟ أم أنني أصبحت أرى فقط الصورة التي أحبها؟

وهنا نقترّب من الإجابة الأخيرة في هذا الكتاب. الإجابة التي لا تتعلق بمن أخطأ أكثر. أو بمن فعل خيرًا أكثر. بل بمن بقي قادرًا على مراجعة نفسه.

الذين يراجعون أنفسهم
بعد كل ما مررنا به في هذا الكتاب... بعد الحديث عن التبرير. والخداع.

والقسوة. يصبح السؤال الأخير مختلفاً.

ليس:

من هو الأفضل؟ ولا:

من هو الأكثر أخلاقاً؟

ولا: من الذي أخطأ أقل؟

بل:

من الذي ما زال قادراً على مراجعة نفسه؟

لأن الحقيقة التي تكشفها الحياة مراراً هي أن البشر جميعاً يخطئون. الجميع.

دون استثناء.

الأب يخطئ. والأم تخطئ.

والزوج يخطئ.

بل وحتى الإنسان الذي يقضي عمره يبحث عن الحقيقة... يخطئ.

ولهذا فإن الفرق الحقيقي بين الناس ليس وجود الخطأ. بل طريقة التعامل معه.

هناك إنسان يخطئ. ثم ينكر.

ثم يبرر.

ثم يقضي بقية حياته يحمي صورة لم تعد حقيقية.

وهناك إنسان يخطئ. ويتألم.

ثم يصبح بعد سنوات شخصاً مختلفاً.

ليس لأنه لم يخطئ. بل لأنه لم يتوقف عند خطئه.

ولهذا فإن أكثر البشر أماناً ليسوا الذين يملكون أقل الأخطاء. بل الذين يملكون أكبر قدرة على مراجعة أنفسهم.

الإنسان الذي يراجع نفسه قد يكون قاسيًا أحيانًا. لكنه ينتبه.

وقد يكون أنانيًا أحيانًا.

لكنه يلاحظ. وقد يظلم.

لكنه لا ينام مرتاحًا طويلاً قبل أن يسأل نفسه:

هل كنت عادلاً فعلاً؟

أما الإنسان الذي توقف عن المراجعة... فهو أخطر مما يظن.

حتى لو بدا صالحًا.

وحتى لو بدا محترمًا. وحتى لو بدا ناجحًا.

لأن التوقف عن المراجعة يعني أن الباب قد أُغلق.

وأن المرأة قد غُطيت. وأن الحقيقة لم تعد مرغوبة.

ولهذا فإن النضج الأخلاقي ليس الوصول إلى مرحلة لا تخطئ فيها. بل الوصول إلى مرحلة لا تخاف فيها من اكتشاف أخطائك.

فبعض الناس يكبر عمرهم فقط. أما بعضهم الآخر فيكبر وعيهم.

والفرق بين الاثنين ليس عدد السنوات.

بل عدد المرات التي امتلكوا فيها الشجاعة ليقولوا: كنت مخطئًا.

وهذه الجملة البسيطة أصعب بكثير مما تبدو. لأنها تهدم الغرور.

وتكسر الوهم.

وتعيد الإنسان إلى حجمه الحقيقي. إنسان.

لا ملاك.

ولا شيطان. إنسان فقط.

ولهذا فإن أجمل ما يمكن أن يحدث للإنسان ليس أن يقتنع بأنه صالح. بل أن يبقى قابلاً للتصحيح.
وقابلاً للتعلم.

مهما بلغ من العمر. ومهما ازداد علماً.
ومهما ارتفعت مكانته.

ففي اللحظة التي يعتقد فيها الإنسان أنه وصل... يتوقف عن السير.
وفي اللحظة التي يعتقد فيها أنه فهم كل شيء...
يتوقف عن التعلم. وفي اللحظة التي يعتقد فيها أنه لم يعد بحاجة إلى مراجعة نفسه...
يبدأ بالابتعاد عن الحقيقة.

وربما لهذا السبب لم يكن أفضل البشر عبر التاريخ أولئك الذين لم يخطئوا. بل أولئك الذين ظلوا يقظين
أمام أخطائهم.
وظلوا خائفين من غرورهم.
وظلوا مستعدين لمحاسبة أنفسهم أكثر من محاسبة الآخرين.

وهكذا نصل إلى آخر محطة في هذا الكتاب. المحطة التي كان العنوان يقودنا إليها منذ البداية.
المحطة التي لا نتحدث فيها عن الآخرين.
ولا عن المجتمع. ولا عن التاريخ.
بل عن الحقيقة التي تجمعنا جميعاً.
حقيقة بسيطة. ومزعة.
وصادقة.
حقيقة اسمها:
لست بريئاً

الخاتمة

إذا وصلت إلى هذه الصفحة... فربما لم يعد السؤال الذي بدأت به هذا الكتاب هو السؤال نفسه الذي تحمله الآن.

في البداية كنا نبحث عن الشر.

نبحث عنه في الآخرين. في الظالمين.

وفي القساة.

وفي الكاذبين. وفي أولئك الذين تركوا خلفهم الألم والخراب.

لكن كلما تقدمنا في الرحلة، بدأ شيء يتغير.

بدأت الحدود تصبح أقل وضوحًا. وأقل راحة.

وأقرب إلى الحقيقة.

اكتشفنا أن الإنسان لا يرى نفسه كما يراه الآخرون. وأنه بارع في تبرير أخطائه.

وأنه يمنح نفسه الأعذار التي لا يمنحها لغيره.

وأنه قد يؤدي وهو مقتنع أنه يحمي. ويقسو وهو مقتنع أنه يربي.

ويظلم وهو مقتنع أنه يعدل.

بل وقد يفعل أشياء عظيمة الخطورة وهو مطمئن الضمير تمامًا. ولعل هذه كانت أكثر الحقائق إزعاجًا في هذا الكتاب.

أن الشر لا يأتي إلينا غالبًا مرتديًا وجه الشر.

بل يأتي مرتديًا وجوهًا مألوفة. الحب.

والواجب.

والمصلحة. ولهذا لم تكن معركتنا الحقيقية مع الأشرار.

بل مع الوهم.

وهم أننا مختلفون عنهم تمامًا. وأكثر حصانة من الوقوع في الأخطاء نفسها.

لكن الحقيقة أكثر تواضعًا.

نحن جميعًا نحمل داخلنا القدرة على الخير. ونحمل داخلنا القدرة على الخطأ.

نحمل الرحمة والقسوة.

والصدق والتبرير. والشجاعة والخوف.

ولا أحد منا يعيش في أحد الجانبين بالكامل.
ولهذا لم يكن الهدف من هذا الكتاب أن يجعلك تدين نفسك. ولا أن يجعلك تدين الآخرين.
بل أن يجعلك أكثر صدقًا.
أكثر حذرًا من يقينك. وأكثر استعدادًا لمراجعة أفكارك وأحكامك وقراراتك.
فربما لا يكون أفضل البشر من لا يخطئ.
وربما لا يكون أسوأ البشر من أخطأ. بل يكون الفرق الحقيقي بينهما في شيء واحد فقط:
أن أحدهما ما زال قادرًا على مراجعة نفسه.
والآخر توقف عن ذلك منذ زمن. إذا كان هناك شيء واحد أتمنى أن يبقى معك بعد إغلاق هذا الكتاب،
فهو سؤال بسيط:
ماذا لو كنت مخطئًا؟
ليس لأنك مخطئ دائمًا. بل لأن هذا السؤال الصغير قد ينقذك من كثير من الأخطاء الكبيرة.
وقد يحميك من الغرور.
وقد يبقى باب الحقيقة مفتوحًا. إذا خرجت من هذه الصفحات وأنت أقل قسوة على الآخرين...
وأكثر صدقًا مع نفسك...
وأقل يقينًا بكمالك... فقد حقق هذا الكتاب غايته.
لأن الإنسان لا يصبح أفضل عندما يكتشف عيوب العالم فقط.
بل عندما يملك الشجاعة الكافية لاكتشاف عيوبه هو. ولهذا...
وبعد كل ما قيل في هذه الصفحات...
لا أستطيع أن أقول إنني بريء. ولا أظن أنك تستطيع.
لكن ما دمنا ما زلنا نملك الشجاعة للنظر في المرأة...
فربما ما زالت لدينا القدرة على أن نصبح أفضل. انتهى

كلمة أخيرة

عندما بدأت كتابة هذا الكتاب، كنت أظن أنني أكتب عن الآخرين. عن الظالم.
وعن المخادع.

وعن القاسي. وعن أولئك الذين يخطئون ولا يرون أخطاءهم.

لكن مع كل صفحة اكتشفت أنني أكتب عن شيء أقرب بكثير.

عن الإنسان. عن نفسي.

وعنك.

وعن تلك المسافة الصغيرة بين ما نحن عليه وما نعتقد أننا عليه. إذا خرجت من هذا الكتاب بسؤال واحد فقط، فليكن هذا السؤال:

هل ما زلت أملك الشجاعة لأراجع نفسي؟

لأن الإنسان لا يصبح أفضل عندما يثبت أنه على حق. بل عندما يملك الشجاعة للاعتراف بأنه قد يكون مخطئًا.

شكرًا لأنك شاركتني هذه الرحلة.

محمد أبو الفتوح

لستُ بريئاً

كلنا أبطال قصصنا الخاصة

رحلة في أعماق النفس البشرية،
حين يصبح التبرير أداة للهروب،
وحين يتحول الحب إلى قيد،
ويصبح الألم لغة لا نريد أن نفهمها.

في هذا الكتاب، لا نبحث عن أبطال خارقين،
بل عن أشخاص حقيقيين... مثلك، مثلي.
عن أوهامنا، عن أخطائنا،
عن اللحظة التي نقف فيها أمام المرأة
ونسأل أنفسنا بصدق:
هل أنا مختلف حقاً؟



عن الكاتب

كاتب وباحث في النفس البشرية والعلاقات الإنسانية.
يؤمن أن الكتابة مرآة تواجه بها أنفسنا،
نقترب من الحقيقة... مهما كانت مؤلمة.



جميع الحقوق محفوظة

محمد أبو الفتوح